عمرو منير دهب

جينات ثورية



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf



جينات ثورية


طبع في لبنان

جينات ثورية

عمرو منير دهب

الطبعة الأولى

1441 هـ - 2020 م

ردمك 9786140244733

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

9 شارع محمد دوزي برج الكيفان

الجزائر العاصمة

هاتف 0776616609

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الإهداء

إلى كل مَن يتوق إلى العدالة وينافح في سبيلها.

عمرو

المحتويات

الثورة والجماهير

إما كلهم خونة وإما كلهم شرفاء

الخيانة والخيانة العظمى

الماكرون خلف الجماهير

الثورة المضادة

لا مرجعية تسلم من الهوى

ليس من السهل التنبّؤ بالثورة

الثورة تحتمل الفرحة

الثورة والعاطفة

غلاظة الثورة وبصيرة الثوّار

استراتيجيات الثورة

مكر الجماهير الثورية

الثورة والمدنيّة

الثورة والديموقراطية

طفل الثورة ووحش الديموقراطية

الثورة مجدداً

نعود إلى الحديث عن الثورات بعد "لا إكراه في الثورة" الذي خرج من عباءة "الربيع العربـي" الساخنة، فقد ركبت قطار الثورة بعد سنوات من ذلك الربيع الملتهب أربعُ دول عربية. الجزائر والسودان لم يكونا تحت حكم ديموقراطي بحال، أما العراق فقد جرّب على مدى تاريخه شتى صنوف الديكتاتوريات ولا يزال يكافح مع ديموقراطية حديثة جداً وغير مستقرة أبداً. وأمّا لبنان فهو النموذج الوحيد لديموقراطية عربية مستقرة شكلاً، وقد أبانت الثورة اللبنانية الأخيرة أن وراء الأرز من مشاكل الديموقراطية العربية ما وراءها.

"جينات ثورية" لا يقف عند حدود الثورات العربية الأخيرة، وإنما يتجاوزها إلى الحديث عن الثورات مجردة، ويناقش تورّط الجميع فيها، ثم ينتهي متسائلاً عن غاية الثورة: هل تتحقق باقتلاع نظام وتكليف أو انتخاب نظام جديد، أم أن النهاية السعيدة للتاريخ الثوري المجيد أبعد أمداً من ذلك؟

عندما استعاد السودانيون أصالتهم

قبل نحو تسعة أعوام وفي غمرة ما راج بوصفه "ربيعاً عربياً"، وتحت عنوان "قراءة في إبداعات الشعوب على خلفية ثوراتها"، تساءلت: "في السودان، ومن دون الحاجة إلى الدعوة إلى الثورة، أو الاستكانة في المقابل، نتساءل ببراءة وسيرتُنا مع الإبداع على ما أشرنا إليه مراراً: هل نحن على استعداد لتسويق مصطلحاتنا الخاصة من قبيل "الربّاطي" أو "الشِّفِت" عوضاً عن "البلطجي" إذا استدعى الأمر تدخُّل تلك الطائفة في اشتباكات من قبيلِ ما يتطلّع العالم بشغف إلى معرفة تفاصيله؟... نسأل الله السلامة".

وقد سلّم الله بفضله، فقد وقعت الثورة، واجتاحت أصداؤها العالم وليست بقاع السودان المترامية فحسب، دون أن تحشرنا في امتحان البحث عن مرادف "البلطجي" في القاموس السوداني.

وفي السياق نفسه قبل تسعة أعوام، وتحت عنوان "ثورتانا وثورات العرب: حقوق الريادة محفوظة"، مقارنةً بين ذاك "الربيع العربـي" وبين ثورتي "أكتوبر" و"أبريل" السودانيتين، تحت ذلك العنوان كتبت: "حقوق الريادة في صنع الثورات الحديثة عربياً تظل مسجّلة باسم السودان بلداً لا يضيره أنْ تجاوزتْه بعضُ البلاد العربية مؤخراً بالجديد من تقنيات صنع الثورة وإفشاء مضامينها على كل صعيد قدرَ ما يضيره أنه - وبعد أكثر من ربع قرن من آخر ثورتَيْه - لم يخرج على الناس بمقدِّمات تجربة رائدة لإرساء أسس أصيلة لمفهوم الحرية والعدالة في المجتمع تفيد منها ثورة مرتقبة عوضاً عن أن تكون الثورة عالة على مجتمع متخم بالمفاهيم المُثقِلة - قَبلياً وطائفياً

وأبويّاً - فتذهب الثورة آخر المطاف ضحية المجتمع برمّته وليس بسبب ثورة مضادة من أي قبيل".

وقد قامت الثورة في السودان فلم تتجاوز "أكتوبر" و"أبريل" فحسب، وإنما تخطّت الثورات العربية الأخيرة كذلك، ومقام المقارنة هنا هو المشاركة الفاعلة والمبدعة من الجماهير إزاء الصفوة عند الموازنة بين ثورتينا السابقتين وهذه، والمقارنة بين الجماهير والجماهير عند الموازنة بين ثورات العرب الأخيرة وثورتنا هذه.

تفوّق السودانيون على أنفسهم فتجاوزوا "أكتوبر" وأبريل" تجاوزاً لا ينال من ريادة الأولى ولا من خصوصية الثانية بطبيعة الحال، وتفوّق السودانيون بصفة عامة على الثورات العربية الأخيرة تفوقاً لا يحطّ من قيمة أيٍّ منها بقدر ما يشير إلى الانتفاع من دروسها وإضافة مزيج فريد من اللمسة السودانية السمحة والخبرة العريقة لشعب ليس مُحدَث ثورات بحال.

كان من حظ السودانيين أن تكون ثورتهم خاصة وفريدة كالعادة فلا تأتي في زحمة "الربيع العربـي"، وكانت الفسحة بين "الربيع العربـي" والثورة السودانية الأخيرة كافية ليتخلص السودانيون من أي تأثير للشعارات العربية التي أوسعها الثوار حينها استهلاكاً، بدءاً من "الشعب يريد إسقاط النظام" و"ارحل"، ومروراً بما على شاكلة "خبز... حرية... عدالة اجتماعية"، إلى غير ذلك مما استهلكه العرب حديثاً واستهلكناه نحن في ثورتينا السابقتين.

كان شعار الانطلاقة مبتكراً بصياغة سودانية خالصة، بليغة وحاسمة، وتَبِعَتْهُ الشعارات المتتالية على ذات النمط من الخصوصية والابتداع، بل تجاوز الأمرُ الشعاراتِ إلى الأشعار نفسها التي انطلقت عفواً لا تستلهم حتى التاريخ السوداني القريب، بل تتخذ خصوصيتها من الحدث ودواعيه وتداعياته. وإذا كانت الحقبة الممتدة طويلاً قد باعدت بين الجيل الجديد وأي تراث كان مغرياً بالاستلهام في تاريخنا الثوري على غناه، فإن ما يستحق التنويه والتقدير هو ما

سلفت الإشارة إليه ممثلاً في تجاوز القريب المغري بالتناول من آثار الثورات العربية الدانية.

الفريد في إطار خصوصية الثورة السودانية هذه المرة ليس فقط الشعارات والأشعار والمواقف الطريفة التي لم تخل من العمق. ربما كان الأكثر فرادة في ديسمبر 2018 حتى اللحظة المرأة السودانية، وهي فرادة على الأرجح تجاوزت أيضاً خصوصية المرأة السودانية في ثورتينا السابقتين وفي ثورات العرب القريبة. حواء السودان لم تكن مشاركتها رمزية سواءٌ كمّاً أو كيفاً، وحواء السودان لم يدفعها الرجال سواءٌ مادياً أو معنوياً، بل الأرجح أنها على العكس شكّلت للرجال الدافعَين المادي والمعنوي عبر المشاركة الجادة والمتكافئة متجاوزة دورها التقليدي ذي الظلال والتجليات الفلكلورية ممثلةً في الاكتفاء بإشعال حميّة الرجال، وبذلك ألهمت حواء السودان خصوصيةَ ابتكار كنيتها هذه المرة لتكون "الكنداكة" عوضاً عن "مهيرة" - المقدّرة بدورها - التي أنهكتها كثرة الاستعارات خلال التاريخ السوداني الحديث.

تخطت حواء السودان بكنيتها التي تجددت في "الكنداكة" الحدود، ليس انطلاقاً عربياً ولا إقليمياً فحسب وإنما عالمياً كذلك دون مبالغة كما في السياقات المماثلة المشتهاة، فها هي تقتحم لندن عبر صفحات جريدة "الغارديان" العريقة، وتتصدر الأخبار في نيويورك عبر شاشات "كوميدي سنترال" مع تريفور نواه في برنامجه الاستعراضي اليومي، مثالاً لا حصراً.

انتزع الشباب الثائر النجومية في مشهد الثورة وتقهقر جميع مَن في المشهد وراء الشباب وتحته، وضمن أولئك الذين خطّطوا وأداروا خلف الكواليس وأمامها من كهول الصفوة السياسية وشيوخها الذين سيعودون إلى صدارة المشهد عندما يحين أوان الولوج إلى تفاصيل اللعبة السياسية الماكرة، ليتراجع معها على الأرجح نصيب الشباب الثائر من المشاركة، وكأنما قدَرُ ذلك الشباب خالصِ النوايا أن يكتفي من حظ النجومية بالقسط الأكثر طهراً بعيداً عن مزالق المعادلات والمتباينات والمواقف المادية والسياسية التي تتجسّد في كل شكل هندسي سوى الخط المستقيم.

وإذا كُنّا قد استهلكنا فيما استهلكناه عبارةَ "الزمن الجميل"، فإن نُبل فتيات ثورتنا وفتيانها قد أعاد إلينا ألَقَ الزمن الجميل، أو لِنقُلْ إنه ابتدع زمناً جميلاً يخصّه، ويخصّنا كذلك بقدر ما نستطيع الحفاظ على الروح البديعة التي تشكّلت خلال الأيام الحافلة التي مضت والتشبّث بها، فالمستقبل هو امتحاننا معاً، ولا يزال أوان الحكم على اجتيازنا ذلك الامتحان بعيداً. وبرغم أن مشقة الامتحان ترغمنا على أن نرجئ الاحتفال الكبير إلى أجل ليس في وُسع أيّ منّا التكهّن به، فلا أقلّ من أن نجدّد التحية والتقدير لفتياتنا وفتياننا الذين أتاحوا لنا الاطمئنان إلى أن أخلاق السودانيين أصيلة يصعب اجتثاثها أو تشويهها على تبدّل أحوال الزمان، فرأيْنَا في وقفتهم الكبرى تلك ما يصلح لإنتاج وترويج مصطلح "الأخلاق العميقة"، تلك الأخلاق التي ظلت صامدة وراسخة حتى جَلتْها أيامُ الثورة ناصعةً لدى الصغار قبل الكبار.

لذة الثورة

رجوعاً إلى غمرة "الربيع العربـي" مجدداً، وتحت عنوان "يثور السوداني ولا يفقد حكمته"، مقارنةً بين ثورات "الربيع العربـي" وبين تجربتينا في "أكتوبر" و"أبريل"، كتبت منذ قرابة العقد من الزمان في خاتمة ما جاء تحت المقال المشار إليه: "التحدِّي الأجدر بأن يلتفت إليه السوداني هو كيف يظل محتفظاً بحكمته وهو يرقى سلّم الحياة المدنية المعقّدة بعيداً عن سؤال الثورة: تقوم أو لا تقوم؟، فتلك ليست القضية".

ولكن الثورة قامت، وإنْ تأخرت نحو عشرة سنوات، ولم يفقد السوداني خلالها وإلى الآن حكمته كدأبه مع تاريخه العريق والرصين مع الثورات، بملاحظة انقلاب الحال إلى العكس مع الجزء الأول من السؤال الذي بات لا مفرّ من تجاوزه مرحلياً الآن مع المشهد الثوري العارم: "كيف يظل السوداني محتفظاً بحكمته وهو يرقى سلّم الحياة المدنية المعقّدة؟".

وإذْ لا إكراه في الثورة، مثلما إنه لا إكراه في الدين، فلا ريب في المقابل أنّ المشاركة في ثورة - وإنْ بصورة تلقائية على اختلاف أشكال المشاركة - تنطوي على لذة فريدة بقدر التغيير الذي تتطلّع إليه الثورة، وبقدر امتداد زمان النظام الذي سبق الثورة واستحكامه، وهي لذة تتأكد وتتعاظم كلما أحرزت الثورة تقدماً ونجاحاً على أي صعيد مهما يكن صغيراً.

يبدأ الإحساس بلذة الثورة مع تأكُّد اشتعالها بالتماس زعزعة أسس النظام الذي استهدفته، ويتعاظم الإحساس بتلك اللذة مع اجتياح العدوى الثورية الجماهيرَ العريضة قطاعاً فقطاع. وهي لذة على أكثر من مستوى: عامّة تسحر المتابعين من الجماهير، وخاصة تسري في بدن كل مُنجرف

طوعاً في فيض الثورة، وثالثة أشدّ خصوصية يستشعرها الثائرون الروّاد الذين نهضوا بالمخاطرة العظمى وحدهم في البدء.

وعدوى الثورة ليست تعبيراً عاطفياً، فبحسب غوستاف لوبون في كتابه "الآراء والمعتقدات"، الصادر في نسخته العربية عن دار "عصير الكتب" من ترجمة عادل زعيتر، بحسب غوستاف: "نشأت حوادث الدين التاريخية عن العدوى النفسية، ومع ذلك لم يكن تأثيرها في أحد الأزمنة الماضية كما هو في الوقت الحاضر (قبل أكثر من مائة عام)، وسببه أولاً: أن السلطة أخذت تنتقل بالتدريج إلى الجماعات بفعل المبادئ الديموقراطية، وثانياً: أن تعميم وسائل النشر يؤدي إلى سرعة ذيوع الحركات الشعبية، وما من أحد يجهل كيفية انتشار اعتصابات موظفي البريد والثورات التي اشتعلت في روسيا وتركيا والبرتغال. والحكومات الضعيفة تكون عاجزة أمام سلطان العدوى، ولم يقتصر الأمر على إذعان الحكومات لكل ما تأمرها به الجماعات، بل سرعان ما تُدعم هذه الأوامر من قبل كتائب من المتعلمين جعلتهم العدوى يعتبرون عدلاً ما فيها من ظلم وإجحاف، على هذا الوجه أصبحت أهواء الجموع الطائشة في نظر تلك الكتائب مبادئ جديرة بالاحترام، كما كانت رغائب الملوك في الماضي مقدسة عند بطانتهم".

عجْزُ الحكومات الضعيفة أمام سلطان العدوى محمدة لا ريب، لكن الحالة التي تتبدى إزاءها "أهواء الجموع الطائشة مبادئ جديرة بالاحترام" مرحلة نسأل الله السلامة منها. وعْيُ شبابنا وخبرة كهولنا وحكمة شيوخنا جديرة بأن تمنحنا من الأمل على هذا الصعيد ما يصلح للتعويل عليه دون تقاعس عن المتابعة اللحظية بالتمحيص والتقويم.

تتجاوز لذة الثورة حلاوة تذوّق طعم التغيير العابر إلى إحساس عميق بنشوة تستبد بالنفس وقشعريرة ممتدة تستولي على البدن، ومجدداً لا تكون اللذة بتلك السطوة إلا عندما تكون الثورة نفسها أصيلة ومستحقّة ومغرية قبل اشتعالها بأن تبدو كالمستحيل.

أجدرُ المنطوين في زمرة الثورة بالتقدير هم الذين دخلوها وشاركوا فيها على اختلاف مراحلها المتقلبة والملتهبة انطلاقاً من نوايا خالصة تتعلق

برفض الظلم وتتطلّع إلى الحرية دون مزايدة من أي قبيل. وفي ثورتنا هذه لا أحد أجدر بهذا الوصف من فتياتنا وفتياننا الذين صمدوا في وعي ورُقيّ وثقة، وطمأنوا آباءهم وأجدادهم إلى أن غرسهم قد أثمر خيراً مما توقع الآباء والأجداد أنفسهم. هكذا كانت الثورة القاسية هي الامتحان الذي أظهر معادن الصغار من بناتنا وأبنائنا لا معادن الكبار فحسب، فللصغار معادنهم التي لم يستطع الكبار النفاذ إلى جوهرها إلاّ بعد أن تألّقت في لهيب الثورة المشتعلة، وكانت قشرة غليظة من المجتمع الأبوي تطغى على تلك المعادن النفيسة، وضعها الكبار وشكا من آثارها الكبار.

فتياتنا وفتياننا ليسوا بلا أخطاء، وهم ابتداءً لم يندفعوا إلى تعميم بتلك الفخامة، فنظرة إلى حساباتهم على أي موقع تواصل تبيّن أنهم أكثر واقعية ومصالحة مع الذات من أن يدّعوا مثاليةً نحن مَن كافح مِن أجل تنشئتهم عليها، وقد أدركوا وحدهم أنهم أفضل حينما يكونون أنفسهم لا غير، فأصابوا بذلك مفاداً عميقاً لقوله تعالى: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا". أليس غريباً ومريباً ألاّ يكلّف الخالقُ الناسَ إلا وُسعهم، ثم يزعم بعضهم أنهم أكثر استعداداً للأداء النظري والعملي مما يوصي به صانُعهم؟

فتياتنا وفتياننا أدوا قسطهم من أمانة الاستجابة والصمود وزادوا على ذلك بإلهامهم مُثلاً واقعية عملية، ولا أقول "مثلاً عُليا" كما في التعبير المستهلك الفضفاض. بقي علينا ألاّ نخذلهم فيما يتعلّق بأداء قسطنا من أمانة الخبرة والحكمة وتجاوز الخلافات قديمها وما يمكن أن يطرأ من واقع الأحداث التي لا تزال ساخنة على أكثر من (كل؟) صعيد.

عصر الجماهير السودانية

نعود إلى غوستاف لوبون هذه المرة مع كتابه "سيكولوجية الجماهير"، في نسخته العربية الصادرة عام 2016 عن دار الساقي من ترجمة هاشم صالح. يقول لوبون: "وبما أن فترة كهذه (قبل حوالي مائة وخمسة وعشرين عاماً في أوروبا) هي بالضرورة مشوشة وفوضوية، فإنه ليس من السهل أن نتنبأ اليوم بما سيتولد عنها مستقبلاً. فالسؤال المطروح هو: على أية أفكار أساسية سوف تنهض المجتمعات المقبلة التي ستخلف مجتمعنا؟ إننا لا نزال نجهل ذلك حتى الآن. ولكننا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن بأنه ينبغي عليها أن تحسب الحساب فيما يخص بنيتها وتنظيمها لقوة جديدة تمثل آخر سيادة تظهر في العصر الحديث: إنها قوة الجماهير وجبروتها".

يواصل المفكر الموسوعي الفرنسي: "فعلى أنقاض أفكار كثيرة كانت معتبرة صحيحة سابقاً وميتة اليوم، وعلى أنقاض تلك السلطات العديدة التي سحقتها الثورات، نجد أن هذه القوة الجديدة هي وحدها التي نهضت وترسخت. ويبدو أنها سوف تمتص كل الأخريات قريباً. وفي الوقت الذي راحت فيه عقائدنا القديمة تترنح وتتهاوى، وفي الوقت الذي أخذت فيه الأعمدة القديمة للمجتمعات تتساقط الواحد بعد الآخر، فإننا نجد أن نضال الجماهير هو القوة الوحيدة التي لا يستطيع أن يهددها أي شيء. وهي القوة الوحيدة التي تتزايد هيبتها وجاذبيتها باستمرار. إن العصر الذي ندخل فيه الآن هو بالفعل عصر الجماهير".

ذلك عن أوروبا قبل مائة وخمسة وعشرين عاماً، وهي ملاحظات من مفكر موسوعي حظيت أفكاره وحظي هو نفسه بالكثير من المعارضة،

والكثير من التجاهل المتعمّد كما يرى كثيرون، قبل أن يُعترف بالتأثير الكبير لتلك الأفكار دون أن يصاحب ذلك بالضرورة اعتراف بدقتها من وجهة نظر علمية وفكرية.

ولكن ماذا عن السودان الآن؟ هل بدأ عصر الجماهير السودانية مع الثورة الأخيرة؟ الإجابة: ليس تماماً، مع ملاحظتين: الأولى أن عصر الجماهير بوصفها مصدر السلطة، والقوة التي لا يستطيع أن يهددها أي شيء بحسب تعبير لوبون، لم يحن بعد لا عربياً ولا إقليمياً ولا في أيٍّ من دول العالم الثالث، والسودان ليس استثناءً على هذا الصعيد. الملاحظة الثانية، وهي الأهم في مقامنا هذا، تتلخّص في أننا لو أخذنا الأمور بمرجعية نسبية فإن عصر الجماهير السودانية المؤثرة أحق بأن تُنسب انطلاقتُه إلى ما قبل ثورتنا الباهرة هذه، إلى أبريل 1985 وإلى أكتوبر 1964. لكن هاتين الثورتين البارزتين في تاريخنا الحديث عقب الاستقلال أيضاً ليستا وحدهما ما يشير إلى المفهوم النسبـي لعصر الجماهير السودانية المؤثرة قبل ديسمبر 2018، فالإشارة الأبلغ على هذا الصعيد أبعد من ذلك وأشد تعقيداً وأعمق دلالة.

سطوة الجماهير السودانية تمثّل لها بوضوح وقوة استجاباتُها من أجل دولة لم تكن ديموقراطية، تحديداً مع أولى دولاتنا التي شكّلت السودان الحديث ماديّاً ومعنوياً. فانفعال الجماهير تحت قيادة المهدي وأمرائه في كل أصقاع السودان لتشكيل الدولة المهدية، التي ستصبح لاحقاً هي السودان بمفهومه الحديث شكلاً وروحاً، جسّدت أولى إمارات السطوة الجماهيرية للسودانيين خلال تاريخهم الحديث. وإذا كانت تلك الحماسة الجماهيرية منقطعة النظير غنية بالدلالات التي لا يطالها خلاف كبير من قِبل السودانيين حول صورتها الإيجابية العظمي، فإن التمثيل الثاني لسطوة الجماهير السودانية ظلّ كذلك بعيداً عن أن يطال صورتَه الإيجابية العامة خلافٌ عظيم، برغم أن الدولة التي انطلق دفاعاً عنها كانت ولا تزال محل جدال من حيث ممارساتها السلطوية والقهرية.

أغلب السودانيين كان من الحكمة بحيث ظلّ يرى في سبتمبر 1898 (كرري) معركة ضد المستعمر، ليتجاوز معظمهم منذ ذلك التاريخ وإلى اليوم أي خلاف يُذكر بشأن قهر الدولة المهدية إذا أريد له أن يُتخذ ذريعة للتقليل من شأن حماسة الأنصار في المعركة، تلك الحماسة التي انطلقت من عقيدة سودانية صرفة في الولاء والقتال، حتى إذا كانت سطوة الجماهير حينها تعمل لصالح الدولة وليست ضدها، فالقراءة الأشمل والأعمق والحال كتلك لسطوة الجماهير السودانية أنها تعمل لصالح الوطن بمنأى من حسابات الشعب الخاصة - والمتباينة في تعقيد - مع الدولة التي تمثِّل الوطن في أي زمان. الجماهير السودانية عرفت دوماً على الأرجح طريقة تصفية حساباتها مع الدولة بعيداً أية تداعيات سالبة من شأنها أن تمسّ الوطن نفسه، وهو فضلٌ نالته الجماهير السودانية وأخطأته الصفوة بوضوح.

بالرجوع إلى ثورتنا الباهرة، فإن أحداً ليس في وسعه الآن أن يتنبأ بمصيرها القريب فضلاً عن مآلاتها على المدى الأبعد، ونسأل الله أن يكون الوضع في الحالين لصالح السودان والسودانيين على اختلاف مرجعيّاتهم.

هكذا، فإن عصر الجماهير بالمفهوم الراسخ والممتد الذي أراده غوستاف لوبون لم يحن بعد كما أشرنا، سواءٌ عندنا في السودان أو حوالينا على أي محيط قريب. لكن السودانيين مجدداً قالوا كلمتهم فيما يصلح لأن يؤسس نموذجاً ملهماً لانطلاقة سديدة تنمّ عن تاريخ مليء بالدلالات والقيم الأصيلة والغنية، دون أن ننكر أن ما ينتظرنا من استحقاقات على الطريق المفضية إلى الدولة الجماهيرية الراسخة لا يزال كثيراً وقابلاً لتغيّرات درامية ودراماتيكية مفتوحة على كل احتمال.

يا زمان الحركة الإسلامية

على مدى سنوات التنشئة لأجيال مضت ارتبط قيام دولة الحكم العادل والرشيد التي تمثل نموذج الدولة النبوية والخلافة الراشدة من بعدها، ارتبط بقيام الساعة، ولا مبالغة في التعبير. واكتسبت الفكرة أبعاداً معمّقة باقترانها بهزيمة إسرائيل التي دُمجت هي الأخرى في فكرة آخر الزمان استناداً إلى بعض الأحاديث النبوية التي رآها بعض المفسرين تشير إلى المواجهة الماثلة بين المسلمين واليهود وليست أية مواجهة أخرى يمكن أن تحدث في أي زمان قادم. ومع كثرة الحديث عن علامات الساعة - التي ظهر أكثرها بحسب ما استلذّ كثيرون بترويجه - بات الحديث عن فكرة آخر الزمان هذه أكثر قبولاً من جانب قطاعات عريضة من المسلمين خاصة في ضوء نسبية الزمان نفسه، ومن ثم نسبية ما يمكن أن يفصل بين علاماته الصغرى التي وقعت كما رأى كثيرون والأخرى الكبرى التي يمكن أن تقع في أية لحظة وشيكة.

في ظلال تلك الأجواء الملبدة بالغيبيّات، وبالنسبة لصَبـي يملك طبعاً وديعاً يجافي كل ما هو مفاجئ وعنيف على أي صعيد مادياً كان أم روحانياً، كان أي تفسير لانتفاء ارتباط قيام الساعة بمعركة وشيكة مع اليهود أو علامة صغرى ليست مؤكدة بالضرورة مرحَّباً به بشدّة في روع ذلك الصبـي.

ومع نقاء النزعة الدينية الوديعة، مضافاً إليها فيض من حماسة المراهقة لاحقاً، تغدو أية إيماءة لقيام حُكم يَعِد بأن يتبع نهج الرسول الكريم كما أوصى وبشّر به، تغدو أية إيماءة من ذلك القبيل أشبه ببشارة لرؤية بعيدة المنال توشك أن تتحقق دون أن تكون رهناً لقيامة تقوم.

غير أن طبعاً عصيّاً على أيٍّ من أشكال التجنيد - ولا مناص من الاعتراف بأن في ذلك الطبع خيراً وحقاً تماماً مثلما أن فيه فرصاً لإضاعة شيء من الخير والحق في الوقت نفسه - لم يكن ليسمح للفتى بأكثر من مؤازرة مشروطة للمنادين بإمكانية قيام الدولة الدينية المشتهاة ببنود خارقة تمثّل الصورة التي انطبعت عليها فكرة الدولة المثالية المبشَّر بها آخر الزمان أو قبله بقليل. في ضوء تلك المثالية للفتى المتحمس وديع الطباع لم يكن من غضاضة البتة في تضييع فرصة الفوز برئاسة اتحاد طلابـي على قائمة إسلامية بعدم إجازة القائمة كاملة لاشتمالها على طالبتين أو ثلاث لا يفترض عليهن أن يتقدّمن لمهمة حكر على الرجال مكتفياتٍ - كما في التفسير المثالي للمرجعيات الدينية الموغلة في التقليدية - بدورهن الأساس في الشد من أزر الرجال خلف الكواليس في بيوتهن حيث يُفترض أن يَقرْنَ، وليس في اتحاد للطلبة ينبغي أن ينفرد بإدارته الذكور.

تستمرّ متابعة التجربة سواء في نموذجها المصغّر على محيط الطلاب أو في أي من أشكالها في الواقع بكثير من الشروط المثالية القاسية، ودون ولوج إلى أي من المآزق الواقعية بالمشاركة العملية اكتفاءً بسلامة التحليق في فضاء المثاليات، وهو تحليق يعدم الجرأة لا ريب لكنه يجد في المُثل التي تزداد بعداً عن الواقع مبرراً كفيلاً لقطع الطريق على أية محاولات للزج في تجربة عملية لم تقدّم بعدُ من النجاح ما يشجع على تحمّل تبعات الانتساب إليها، بتجاوز الأخطاء الطبيعية التي تصطدم بها أية تجربة نظرية تتنزّل إلى الواقع، وبصعوبة تجاوز الأخطاء غير الطبيعية للتجربة ذاتها.

بصرف البصر عمّا هو ذاتي وموضوعي لأي منّا في قراءة تجربة الحركة الإسلامية، مضت الحركة بشكلها الذي كان عندنا إلى حيث أصبحت تاريخاً يحكم عليه الناس، ومحكمة التاريخ - على غير ما نردد - ليست مثالية ولا عادلة باستمرار، فشأنها شأن غيرها من المحاكم معلقة بأهواء مَن يسيطر على التاريخ في أيٍّ من مراحله زماناً ومكاناً.

المستقبل مفتوح على كل احتمال، ولكن ردة الفعل للتجربة بقوانين الطبيعة ودروس التاريخ تحتِّم أن يكون البديل القادم في أي اتجاه سوى

ذلك الذي كان من قبل. قد يكون الاتجاه هو النقيض، وقد يكون مختلفاً وليس مناقضاً تماماً بالضرورة، وربما يكون أيّاً من الأشكال المحوّرة بوضوح للتجربة التي كانت، ولكن يصعب أن تعود التجربة أو أي من أشكالها المقرّبة في أمد وشيك إلى واقعنا إذا استقرّ التغيير الذي بدأ بالثورة.

بانتقال حادّ إلى سؤال قاطع: هل نجحت الحركة الإسلامية في تحسين صورة تطبيق الإسلام في الحكم لدى الناس أم لا؟، ستكون الإجابة بـ "نعم" أو حتى "إلى حدّ ما" مهمة مستحيلة لمن يحاول الاقتراب منها.

هذا أوان الثور الذي وقع، ومن ثم أوان السكاكين التي يشحذها كل صاحب شهوة في انتقام مستحق أو مندفع، مع ملاحظتين: الأولى أن المستقبل - كما أشرنا منذ قليل - لا يزال مفتوحاً على احتمالات كثيرة، وإنْ لم يكن من بين تلك الاحتمالات عودة تجربة حكم الحركة الإسلامية كما كانت قبل الثورة، ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أيضاً انتهاء أشكال المناداة بتطبيق الإسلام في الحكم انطلاقاً من فئة ترى أن لديها النموذج الأصح الذي كان أولى بالتطبيق ابتداءً. الملاحظة الثانية أن كثيراً من المتابعين على كل صعيد، سواء رغبةً في المحاسبة الصارمة المخلصة أو الانتقام مجرداً، جرؤوا على شحذ السكاكين والنظامُ على سدة الحكم في أوج سطوته ولم يتهاووا على الثور فقط بعد سقوطه.

الكذب هو الكذب والخطأ هو الخطأ، ولكن الناس أشد قسوة على المخطئ إذا كان واعظاً وعدهم بجنة على الأرض ظلّ كثيرون ينتظرونها قروناً مثلما كان يفعل الفتى الصغير الذي ظل يراقب الحركة الإسلامية من منطلق مثالي منذ صباه. وهكذا فإن أخطاء الحركة الإسلامية في الحكم يصعب أن ينالها من النسيان أو التغاضي مثلما حدث مع أخطاء غيرها من التجارب الماضية على اختلاف أشكالها شمولية كانت أم ديموقراطية، وسواء أكان ذلك منطقياً في المحاسبة أم لا، خاصة إذا كانت المحاسبة هي تلك المتعلقة بما في وجدان الشعب من التداعيات الحرّة تجاه تجربة الحكم الإسلامي، لا تلك التي تقيمها محاكم عاجلة لإرضاء هذا الطرف وذاك.

مشكلة كل حزب عقدي أن أخطاء تجاربه مغرية بنسبتها إلى عقيدته لا إلى طريقة تنفيذها، ومع الحركة الإسلامية فإن العقيدة هي الحكم بالشريعة وليس الإيمان نفسه، والشعب يعي ذلك، وإن يكن هذا ليست بالأمر الهين، فالحكم بالشريعة يوازي لدى البعض الإيمان نفسه، وهذه أيضاً ليست هينة بوصفها مكمناً خطيراً للخلاف حول النظرة إلى الإسلام لدى الشعوب التي تعتنقه. ولكن المعضلة ذاتها تواجه الديموقراطية، فوفق المنطق نفسه يعدّ البعضُ فشلَ التجربة الديموقراطية دليلاً على فشل الديموقراطية نفسها نموذجاً للحكم عندنا إلى الآن. هكذا ندور في الحلقة المفرغة الشهيرة وليس من جديد هذه المرة سوى أن فرصة الحركة الإسلامية في الحكم امتدت بما يكفي لتصحيح أخطاء النظرية والتطبيق على السواء، ولكن ما تحقق كان على الأرجح مضاعفة أخطاء التطبيق إذا صح أن النظرية نفسها ظلت خاضعة للمراجعة والتنقيح.

لم يكن إذن خطأ النظام الماضي الأبرز هو التشبث بالسلطة، فمَن يفعلها ويترك السلطة طواعية بعد أن آلت إليه غصباً؟. لم يحدث الكثير للنهوض بمؤسسات الدولة، بل كانت المؤسسات تتهاوى في كثير من الأحيان، ولكن الخطأ الأظهر تمثّل في محاولة إعادة تعريف التديّن لدى الشخصية السودانية التي نشأت خلال القرون على اعتناق الدين تصوّفاً (أي حبّاً لله ورجاء لرحمته ونعيمه) وليس عبر أية طريقة قسرية، ولنا في هذا تفصيل في كتاب "جينات سودانية" تحت عنوان "شخصية متصوفة ولكن ليست متدينة".

هناك مخلصون في الحركة الإسلامية لا ريب، إخلاص للدين وللوطن وليس للتنظيم فحسب، وهناك فيض من المدّعين كذلك، وليست المشكلة في أن المدّعين أعظم عدداً وعتاداً من المخلصين، المشكلة ابتداءً أن النوايا الحسنة ليست كافية، لا نقول لتبرير الخطأ وإنما للقيام بالعمل أساساً.

الخاسر عندنا على امتداد تاريخنا الحديث مع الصراع على السلطة ليس المعارضة الوالهة دوماً على ضياع فرص الحكم، فبتجاوز الشعب المضيَّع أبداً على مدى تجاربنا الحديثة، يبدو الخاسر بين طرفي الصراع على

الحكم هو دوماً الطرف الذي سنحت له فرصة الظفر بالسلطة. فحكم دولة شخصيتُها في إطار التشكُّل ليس مكافأة وإنما امتحان عسير يبدو أن ساستنا يهرعون إليه دون أن تكون لديهم إجابة مرضية على أي من أسئلته، بل دون أن يقرؤوا الكتب المقررة في المنهج أساساً، أو ربما بقراءة مناهج مستهلكة والجلوس بثقة لملء الفراغ في ورقة الإجابة عن طريق المحاولة والإصرار على الخطأ.

الشرعية الثورية

يتّخذ مصطلح "الثورة" في خواطر الناس ما يفرضه الوضع الراهن، فإذا كانت السلطة القابضة على الحكم قد جاءت بانقلاب عسكري رأت أن تضفي عليه صبغة من الطهر والقداسة فسمّت انقلابها "ثورة" وأشاعت في أدبيّاتها ذلك المصطلح نسبة إلى فكرة أو أيديولوجية أو حتى إلى شهر بعينه، إذا جرت الأمور كذلك مع سلطة ما فإن مصطلح "ثورة" لن يغدو بعدها جاذباً للجماهير عندما تهبّ ويتسنّى لها أن تطيح بتلك السلطة. حينها ستكون مصطلحات أخرى من قبيل "انتفاضة" أكثر جاذبية للاستحواذ على مشهد التغيير الثوري جملة وتفصيلاً.

"ثورة مايو" 1969 و"انتفاضة أبريل" 1985 معاً بمثابة المثال الأبرز على الفكرة/الحالة أعلاه في تاريخ السودان الحديث. وعلى غير ما نخال مع تجليات وأدبيّات الثورات العربية الحديثة، تصبح "الثورة" - بعد حكم انقلابـي يزعم لنفسه صفة الثورية - مصطلحاً ليس غير جاذب فحسب وإنما منفّراً ومستعاذاً منه بصورة حادّة لدى الجماهير.

في ذلك الإطار بالإمكان قراءة واستيعاب ما قاله منصور خالد في كتابه "النخبة السودانية وإدمان الفشل" تحت عنوان فرعي هو "مايو الثانية وشرعنة الثورة"، قال: "من التعبيرات التي تعج بها أدبيات السياسة، خاصة في الأنظمة الثورية، تعبيرا "الشرعية الثورية" و"الشرعية الدستورية". ولا تعني شيئاً المقابلة بين التعبيرين من الناحية القانونية، بل إن تعبير "الشرعية الثورية" نفسه أسطورة قانونية تبرر بها الثورات انتهاكها للحقوق الدستورية الأساسية. فإن أي نظام للحكم، من الناحية النظرية، يستمد

شرعيته من مصدر واحد هو رضى الناس عنه أياً كان التعبير عن هذا الرضى، جاء عبر اختيار طوعي حر (الانتخابات) أو عبر الاستكانة (acquiescence)".

يواصل منصور خالد: "ومن الناحية العملية فإن شرعية النظام وشرعية مؤسساته يعبر عنهما القانون الأساسي الذي يعتمده النظام ويرتضيه الأفراد والجماعات كأساس للقوانين التي تحكم علائقها ببعضها البعض وبالنظام نفسه. بيد أن الأنظمة "الثورية" كثيراً ما تستمر في الحديث عن "الثورية الشرعية" بالرغم من إصدارها لقانون أساسي يحتكم إليه الحاكم والمحكوم لا لسبب إلا لإضفاء طابع شرعي مزعوم على إجراءات لاشرعية، مصدر لاشرعيتها هو تناقضها مع ما درجت عليه الأعراف في بلاد الله المتحضرة، وفي بعض الأحوال، مع القوانين الأساسية التي أصدرها النظام نفسه".

ذلك كلام لن يخضع على الأغلب لجدال يُذكر سواء وهو يتعلّق بـ "ثورة مايو" أو بغيرها من الثورات العسكرية المماثلة على اختلاف الأزمنة والأمكنة. غير أن الحديث يغدو ذا شجون عندما ننظر إلى "الشرعية الثورية" في لهيب أيٍّ من الثورات التي تنهض بها الشعوب ضد الأنظمة المتسلطة في أي مكان وزمان، وبتحديد مباشر هناك أمران أساسيان جديران بالنظر في الحالة الأخيرة هذه: الأول أن "الشرعية الثورية" تغدو مستحقة رجوعاً إلى حظوتها بالقبول لدى الناس الذين قاموا أساساً بالثورة، وإن تكن المسألة ليست منتهية بذلك التبسيط، فالقطعي هو فقط اتفاق الناس على لفظ النظام السابق، لكن رؤاهم حول نظام الحكم الجديد يستحوذ عليها الخلاف الحاد أحياناً بما قد يمتد ويتعمّق بحيث يُشرْعِن بعد سنوات قليلة انقلاباً آخر يعيد صياغة إيحاءات مصطلح الثورة من جديد.

الأمر الثاني يتلخص في أن الثورة تكتسب طُهرها من الجماهير التي تخرج خالصة النوايا بدافع الضيق الصرف من القبضة الخانقة وشظف العيش دون أية نوايا سياسية متمثلة في أشواق ومطامع مختبئة تحفّزاً للوثوب على السلطة. التطلّع إلى السلطة ليس جريمة ابتداءً بطبيعة الحال،

لكن مزج العمل الثوري الخالص - المتمثِّل في الإصرار على الإطاحة بأي نظام متسلّط - بأجندة سياسية من أي قبيل يشكِّل خصماً على "الطهر الثوري"، ولا يعني ذلك قدحاً عنيفاً في حق العمل السياسي قدرَ ما هو إشارة إلى المعضلة التي تواجهها المبادئ السامية وهي تتنزّل إلى الواقع، وعندما يكون الواقع هو العمل السياسي تحديداً فحدِّث عن عمق المعضلة ولا حرج.

لا يبدو من سبيل البتّة لتفادي المعضلة أعلاه، فحالة الطهارة الثورية تبدأ باستجابة الجماهير لنداءات الانعتاق، وتتصاعد بالصمود إزاء الرفض والصد والعنف من قبل النظام المتشبث بالحكم، ثم تبلغ أعلى ذراها مع النجاح في الإطاحة بالسلطة الطاغية. بعدها يبدأ امتحان الواقع ممثلاً في كيفية مواجهة السؤال الممتد: بعد إبطال الباطل ما الذي يجب فعله لإحقاق الحق والسلطةُ التي تجمّعنا للإطاحة بها قد أصبحت بصورتها القديمة جزءاً من الماضي؟

وسواءٌ أصبحت السلطة بكاملها ماضياً بالفعل، أو أن بعض أجزاء من جسدها لا تزال تدبّ فيه الحياة، فإن سؤال الامتحان الممتد أعلاه يظلّ ماثلاً بما يمكن إعادة صياغته على النحو التالي: ما الذي يجب فعله بعد أن أصبحت الجماهير البريئة من دنس السياسة جزءاً من اللعبة السياسية وقد وجدت نفسها في مأزق أشد تعقيداً من التمسّك بشعار واحد يطالب ببتر نظام قد رحل على أية حال بشكله الذي كان؟

لا يمكن في المقابل مطالبة أي حزب سياسي معارض طاله التهميش والتشريد على مدى عقود بالكف عن الزجّ بأجندة سياسية من أي قبيل في المرحلة الماثلة، فمن أبجديات اللعبة السياسية استصحاب أجندتك المفضّلة باستمرار، والمهارة تكمن في كيفية الزج ببنود الأجندة في هذا الموقف وذاك دون أن تضبط متلبّساً من قبل الرأي العام بتهمة استغلال المواقف الوطنية.

لو أن الأمور تُترك للناس لتحقيق رؤاهم حول دولة الحق والخير والجمال دون تدخل من أطراف داخلية وخارجية لكانت الحياة حلماً جميلاً لا

واقعاً كلّه تحديات، لكن الأدهى أن دولة الحق والخير والجمال غير موجودة أساساً حتى يزعم أي منّا أنه يسعى من أجلها. التحدّي الذي لا ينقطع متعلق بإمكانية الوقوف بثبات والتحرك بمهارة إزاء عقبات الحياة برمّتها، فاختلافُ الأفكار والمشاعر هو المتباينة التي تحكم كل علاقات الحياة بصرف البصر عن الطرفين/الأطراف المتحفّزة على جانبـي أية علاقة.

المرأة السودانية حقيقة وليست أسطورة

على قناة "بـي بـي سي العربية" التلفزيونية، وضمن حلقة خُصِّصت لمتابعة الثورة السودانية تم بثّها مساء السابع من مايو 2019، يُجري الشاب الجزائري مقدّم البرنامج تحقيقاً ميدانياً عن الثورة من مقرّ الاعتصام بالقيادة العامة في أجواء هي مزيج من الثورية والسماحة والثقة والاحتفال. يعرِّج المذيع على خيمة ميدانية لتقديم الخدمات الطبية الطارئة للمعتصمين ويقترب من طبيبة شابة متطوِّعة، وكان المذيع قبلها قد نوّه بأن معظم الطبيبات يرفض الظهور أمام الكاميرا، وإذا بدا ذلك الأمر اعتيادياً لمشاهد غربـي أو حتى عربـي تجاه الصورة المنمّطة للمرأة العربية والشرقية فإنه قد بدا لي غريباً، تماماً مثلما سيبدو على الأرجح لأي سوداني يدرك جيّداً أن تحفّظاً من ذلك القبيل دخيل على المجتمع السوداني المنفتح على عكس ما تغري الملاحظات والإيحاءات العابرة بالقياس لأي متأمل من على البعد.

تحدّثت الطبيبة الشابة في وضوح وثقة عن الثورة عموماً وعمّا أحاط بتجربتها الخاصة مع المشاركة العامة والتطوّع في العمل الطبـي الميداني تحديداً، بما أزاح الستار إلى حدّ ما عن الاستغراب الذي اعترى سودانياً مثلي نتيجة امتناع معظم زميلاتها عن الظهور علانية أمام الكاميرا، وبما ذكّر سودانياً مثلي في الوقت نفسه بأن انفتاح مجتمعنا لا يزال نسبياً مهما يبلغ احتفاؤنا بذلك الانفتاح قياساً إلى محيطنا العربـي تحديداً.

انفتاح مجتمعنا لا يزال نسبياً، فنحن سبقنا العرب في سلاسة تدفّق الدور الأنثوي في المجتمع بالفطرة السودانية الإفريقية التي استوعبت

الحضارة العربية، بل والإسلامية نفسها، في نسخة شديدة الخصوصية. ولكن المرجعية الإسلامية والعربية تظل مؤثرة بما يفرض على النساء من القيود ما ليس مفروضاً على الرجال، وهو أمر ليس دوماً شرّاً أو خطأً قدرَ ما هو استجابة طبيعية للتقاليد العربية والتعاليم الإسلامية حتى في أكثر صورها تسامحاً. والشق العربـي في الشخصية السودانية رسخ عبر القرون بما لا يمكن إنكاره حتى بالنسبة إلى الموغلين في الحماسة للبعد الإفريقي في شخصيتنا.

في المقابل انقشع الاندهاش الذي اعتراني بسبب امتناع الفتاة وزميلاتها عن الوقوف علانية أمام الكاميرا عندما أبانت الطبيبة الشابة أنهن كن يشاركن سرّاً - بدرجة ما - ليس لأن ذويهن ضد انخراط المرأة في العمل الشاق وإنما للخوف الذي يعتري الأهل عموماً من مشاركة الأبناء في مظاهرات ثورية قد تجرّ عليهم من ويلات المطاردة والحبس والتعذيب ما تجرّ، وهو خوف من الطبيعي أن يتضاعف تجاه مشاركة الفتيات قياساً بالفتيان، سواءٌ في مجتمع محافظ أو آخر أكثر تحرّراً.

ليس بعيداً عن سياق المشاركة السرية المشار إليه أعلاه، بل بما يؤكد أن المشاركة السرية ليست بدافع المجتمع الأبوي الذكوري، وبما يتيح الوقوف إزاء مفارقة مزدوجة من عيار ثقيل، نشر فتى ربما دون العشرين من العمر - أو فوقها بيسير على أبعد تقدير - صورة له مع أبيه في ميدان الاعتصام مع تعليق يتساءل في أوّله بما مفاده: أيّنا ضبط الآخر متلبّساً بالمشاركة في ساحة الاعتصام؟ خرجتُ من البيت بحجة الذهاب للمذاكرة مع بعض الأصدقاء، وخرج أبـي دون تبرير على اعتبار الروتين اليومي ذهاباً إلى العمل، وتلاقينا في ميدان الاعتصام فضمّ كلانا الآخر إلى صدره دون أن نذهب في الإجابة على سؤال "مَن ضبط الآخر؟" أبعد مما استغرقته مفاجأة اللقاء للوهلة الأولى.

بالنسبية التي ظللنا نشير إليها، فإن المرأة السودانية ظلّت مؤثرة حتى في غضون الثلاثين عاماً من حكم النظام الذي قامت الثورة عليه، وذلك برغم أي خلاف مبدئي يمكن أن يضمره أو يجهر به أيّ من السودانيين تجاه ذلك

النظام. فتأثير المرأة وظهورها الفاعل في المجتمع السوداني لم ينقطع طوال عهد النظام السابق الذي كان متقدّماً نسبياً في نظرته إلى المرأة قياساً إلى الأنظمة النظيرة له على امتداد العالمين العربـي والإسلامي، وإذا كان في ذلك شهادة لا بد منها للنظام نفسه فإن الشهادة المضاعفة، بل الشهادة الأصل، أحق بها المجتمع السوداني العصيّ على التغيير في سماحته، والمنافح بما يدعو إلى الإعجاب عن انفتاحه، والقادر في مزيج من البسالة والبساطة على تطويع كل نظام ومبدأ ليتنزّل في السودان - إنْ كان لا محالة - كما يريد السودانيون لا كما يجيء في الأصل الذي نشأت عنه الفكرة.

في كتابه "ملامح من المجتمع السوداني"، طبعة دار عزة عام 2005، يقول حسن نجيلة: "ألا ما أشبه الليلة بالبارحة حقاً، فما زال الجدل محتدماً، إلا أنه كان بالأمس حول أنعلّم الفتاة أم لا نعلمها؟ وقد كسبت الفتاة هذا الحق، ولو قدّر للذين غادروا الحياة من رجال ذلك العهد أن يشهدوها بين دور العلم المختلفة من المدرسة الأولية حتى الجامعات في السودان وخارج السودان لقرّت أعين بعضهم ولذعر بعضهم واستكبر الأمر! كيف لا يستكبر وقد كانت تلك المعركة المحتدمة من أجل تعليمها في المدرسة الأولية فقط ولا شيء سواها؟ وكان هذا النزر اليسير في نظر أكثرهم طفرة ملعونة لا تحمد عقباها! وتنتقل المعركة اليوم حول حقوق المرأة والمطالبة بمساواتها بالرجل.. سنة التطور.. ولو امتدت بنا الأيام نحن.. ولو استطعنا أن نسمع ما يقوله أبناؤنا من بعدنا لرأيناهم يسخرون من معركتنا هذه مثلما نسخر اليوم من معركة جيلنا السابق، هل يعلّمون الفتاة أم لا يعلّمونها. وهكذا الحياة صراع بين قديم وجديد.. ولا يلبث الجديد حتى يصير قديماً منهزماً في صراعه مع الجديد وهكذا دواليك. ألا ما أشبه الليلة بالبارحة حقاً!".

قال حسن نجيلة ذلك في بدايات القرن الماضي، والجدير بالانتباه أن الحديث حينها كان حول تعليم المرأة بصفة أساسية، وكان المقصود بدورها في المجتمع خروجها إلى العمل الذي كان يتطلب منطقياً أن تحظى بفرص التعليم من قبل. كانت تلك معركة محتدمة كما يقول نجيلة في ذلك الوقت المبكر نسبة إلى كثير ممن حولنا، غير أن الأجدر بمزيد من الانتباه أن دور

المرأة في الحياة الاجتماعية كان بارزاً حينها في سلاسة سماحة القيم السودانية، وهو دور لا يزال مضمّخاً بكثير من المؤثرات المكتسبة أساساً من شق الشخصية السودانية المرتبط بالقيم العربية والإسلامية، تلك القيم التي اشتبكت مع مكونات الحضارة النوبية والتقاليد الإفريقية وشكّل كلاهما الشخصية السودانية في نموذج فريد لا تزال مكوناته ومؤثراته تتفاعل في احتدامٍ تصمد أمامه السماحةُ السودانية بما يدعو إلى الغبطة والاعتداد.

العجايز أيضاً أبطال

إنّ الشباب همُ الحياةُ وعزمُهمْ

نبعٌ إذا ظَمِئَ الشعوبُ تفجّرا

تتجـدّد الأيـامُ في شبّانـها

فتعود أبهى للزمان وأنضـرا

قلتُ ذلك أيام الشباب، ولمستُ أعمق معانيه بعد أن أخذ الشباب أهبته للرحيل، بصرف النظر عن الذي لا أزال أستمسك به من أحاسيسه على سبيل المكابرة.

بعودة، ليست حادّة تماماً، من الحديث عن تداعيات الشباب الحالمة إلى الحديث عن الثورة، ومع غوستاف لوبون مجدداً في "سيكولوجية الجماهير" نرى أن المفكر الموسوعي قد صنّف الجماهير إلى فئات مختلفة لم يضع الشباب في أيٍّ منها بصورة مستقلة أو حتى ضمن مجموعة تشملها فئة أكبر، والحق أنه لم يضع المرأة كذلك في فئة مستقلة أو ضمن مجموعة فئوية أكبر لتصنيفه الجماهيري. ورغم أن لوبون يدرس في كتابه الجماهير بالمعنى العريض لها، وخاصة ما يتعلق بتأثيرها في الأحداث، فإن إغفاله الشبابَ والمرأة بصورة مستقلة ربما يبرّر له أن التأثير المستقل لكليهما لم يكن بادياً بوضوح خلال العصور السابقة، خاصة مع المرأة. وعليه فإن تصنيفات غوستاف لوبون استوعبت جماهير الشارع وهيئات المحلفين والمجالس البرلمانية والطوائف السياسية والطوائف الدينية والزمرة العسكرية والزمرة الكهنوتية والزمرة العمالية والطبقة البورجوازية والطبقة

الفلاحية، كل ذلك على سبيل المثال في إطار تصنيفين رئيسين: جماهير غير متجانسة وجماهير متجانسة.

يقول لوبون: "لنقدِّم أولاً تصنيفاً مختصراً لأنواع الجماهير. وسوف تكون نقطة انطلاقنا الأولى هي مجرد الكثرة والعدد. وصيغتها الأدنى تتجلى عندما تكون مؤلفة من أعراق أو أجناس مختلفة. ونقطتها المشتركة عندئذٍ تكون إرادة الزعيم المحترمة قليلاً أو كثيراً. فحَولها تتجمع وتتحلق... وفوق أنواع هذه الكثرة غير المتجانسة تظهر كثرة أخرى انصهرت في بعضها البعض تحت تأثير عوامل مختلفة واكتسبت صفات مشتركة وانتهى بها الأمر إلى تشكيل عرق واحد. وتتجلى فيها، عندما تحين المناسبة، الخصائص الخاصة بالجماهير، ولكنها دائماً مستوعبة من قبل خصائص العرق".

اليوم، مهما تكن طبيعة الدراسة، لا يمكن إغفال الشباب أو المرأة في أي تصنيف جماهيري. بل إن الفئتين - الشباب والمرأة - تعتليان القائمة في كثير من الدراسات الإحصائية المتعلقة بالجماهير، ولعل جماهير البرامج التلفزيونية والحفلات والندوات والمعارض والمسابقات الرياضية أظهر الأمثلة على أولوية ومحورية حضور الشباب والمرأة خلال أية عملية تصنيفية بغرض الاستهداف والاستقطاب.

عرضنا لدور المرأة - بالغ الرمزية والواقعية في آن معاً - خلال ثورتنا السودانية الأخيرة، وإذا كانت المرأة السودانية قد حازت قسطاً معتبراً من الظهور في المشهد الثوري فإن نجومية ذلك المشهد قد استولى عليها الشباب عموماً، ذكوراً وإناثاً، ولن تكون غلبة الذكور سوى لطبيعة المشاركة العملية عموماً والميدانية خصوصاً كما يملي الواقع في أي مكان وزمان وليس هاهُنَا والآن فحسب.

ديسمبر 2018 ثورة شبابية بامتياز إذن، وهو امتياز لا يجب أن ينال من قيمة مشاركة الكبار كما سنرى بعد قليل، ولكنه يشير إلى قدرة شبابنا على اجتذاب أضواء هذه الثورة تلقائياً وليس ترصّداً للظهور أو تعمّداً للاستعراض.

في كتابه "ربيع ثورة أكتوبر 1964 م"، الصادر عن هيئة الخرطوم للصحافة والنشر عام 2013، يقول البروفيسور عبد الله علي إبراهيم: "كنت على طاولة المتحدثين في أشهر ندوتين من الندوات التي ناقشت مسألة الجنوب بجامعة الخرطوم فأرهصت لثورة أكتوبر 1964م. كنت متحدثاً في الندوة الأولى بتاريخ 9 سبتمبر 1964 م. وهي الندوة التي سرق الكاميرا فيها الدكتور حسن الترابـي، العائد للبلد منذ شهور قليلة بعد نيله الدكتوراه من جامعة السوربون بفرنسا. وقد حكيت ملابسات اشتراكي في هذه الندوة بكتابـي (الرق في السودان: نحو أنثربولوجيا الخبر). أما الندوة الأكتوبرية الثانية فهي التي انعقدت في ليلة الأربعاء 21 أكتوبر، واستشهد في ملابساتها الرفيق أحمد القرشي والمرحوم بابكر عبد الحفيظ. وقد وقع اختيار السيد أنور الهادي عبد الرحمن، السكرتير الثقافي لاتحاد الطلبة وعضو الاتجاه الإسلامي (وكان هذا الاتجاه الأكثر حماساً لقيام الندوة) عليّ لأسجل وقائع الندوة. وكنت وقتها عضواً بالمجلس الأربعيني للاتحاد عن الجبهة الديموقراطية".

ليس من خلال كلمات البروفيسور عبد الله أعلاه فقط، ولا من خلال ما عداها من الإشارات المماثلة في الكتاب نفسه أو غيره من المراجع والشهادات فحسب، يمكن الوقوف على فكرة الصفوية في ثورة أكتوبر 1964. نخبوية أكتوبر لا تعني أن الجماهير لم تشارك فيها بصورة فاعلة، فلا ثورة بدون جماهير من العامة، كما إن نخبوية أكتوبر لا تعني بطبيعة الحال أن المرأة كانت مغيّبة خلالها، فبروز المرأة في أكتوبر توثقه الأحداث والتسجيلات المصورة بما يشهد بالحضور اللافت لها في المقدمة. أما الشباب فلا أدلّ على تأثيرهم في أكتوبر من مثل مشاركاتهم في الندوات التي أشار إليها عبد الله علي إبراهيم وأدارها وتحدّث فيها الطلبة، بل إن الدكتور الترابـي نفسه كان حينها في أوج شبابه. ولكن الشباب الذين شاركوا في تفجير أكتوبر كانوا من الصفوة المثقفة، بتذكّر أن جامعتنا العريقة نفسها في الخرطوم كانت حينها مضمّخة بالإيحاءات النخبوية العميقة.

صفوية أكتوبر تعني إذن أن من سرق أضواءها - وهو من أشعلها من قبل - النخبة المثقفة، وربما في جامعتنا العريقة تحديداً. وكما أشرنا منذ قليل، لم يكن لتلك النخبة أن تفعل شيئاً دون الجماهير العريضة التي هدرت في كل صوب وتدفقت في الشوارع. غير أن مشهد النجومية الثورية لأكتوبر ظلّ متسيّداً من قبل الصفوة التي فجّرتها، حتى إذا كان ذلك التسيّد غير متعمّد من قبل تلك الصفوة وغير مستحق على إطلاقه دون تقييد في الوقت نفسه.

مقابل أكتوبر 1964، ظلت أبريل 1985 عصية على الاستقرار في مخيلة السودانيين سوى على أنها انتفاضة جماهيرية، وكأن السودانيين ملّوا من التنميط النخبوي لثورتهم الأولى فدانت نجومية ثورتهم الثانية للجماهير العريضة دون تحديد طبقي أو عمري أو جنسي أو حتى سياسي.

ديسمبر 2018 كما رأينا حظيت فيها المرأة بدور بطولة بارز، وكان نجمها الأول الشباب، في ظاهرة يبدو أنه لا مناص منها متمثلة في نسبة نجومية الثورة إلى فئة بعينها أيّاً كانت، وذلك على الأرجح رجوعاً إلى ظهور لافت لتلك الفئة قياساً إلى التجارب السابقة وإلى الوضع الراهن في الوقت نفسه. والظهور اللافت مسألة نسبية لا ريب لأنه لا يمكن عملياً لفئة واحدة أن تستبد بالبطولة الثورية على حساب سائر أطياف المجتمع من مختلف الفئات، فالثورة فعل جماعي يستلزم تعاضد أطياف المجتمع كلها، دون أن يحجب ذلك دور الريادة لهذه الفئة أو تلك، ودون أن يعني ذلك عدم وجود طوائف متراخية بسلبيتها أو حتى منضوية بحماس تحت ألوية ثورة مضادة.

بَالَغْنا في الحطّ من قَدْر وقَدَر شبابنا قبل الثورة، ثم عدنا بعدها فمجّدناهم في غضون الحراك الثوري، وإذا كانت الحالة الأولى مرفوضة جملةً فإن ثمة تحفّظ يسير في تفاصيل الحالة الثانية لا يبخس الشباب حقهم بحال. والتحفظ اليسير ليس سوى ما يتعلق بتفريطنا في الانتباه إلى دور مَن تجاوزوا سن الشباب من الكهول والشيوخ في التمهيد للثورة وفي قيادتها وهي مشتعلة، وهو دور بارز وأساس لم يكن للثورة أن تنهض دونه ابتداءً، ولم يكن لها أن تستمر في غنى عنه.

دور الشباب كان فريداً في ثورتنا الأخيرة هذه لا ريب، وكذلك دور "العجايز" من الكهول والشيوخ أصحاب الخبرة في التدبير والتنسيق والعلاقات المتشابكة في الداخل والخارج. ولكن إلى هذا وذاك لم يكن للثورة أن تنجح دون عامل أساس هو شيخوخة النظام الذي تمّت الثورة عليه، فلو دُبّرت الثورة في عنفوان النظام لم يكن لها أن تتصاعد وتنجح مثلما حدث الآن، وثلاثون عاماً لا يمكن أن تُحسب شباباً في عمر الأنظمة إذا كانت السنوات الثلاثون في دولة شرقية إفريقية أقل تطوّراً ومستعرة الجدل حول الهوية والشخصية المدنية، بصرف البصر عن الاختلافات الأيديولوجية بصفة عامة.

يصعب على المُعارض مهما يبلغ من القوة أن يُسقط نظاماً راسخاً لا تنقصه القوة، وعليه فإن دور البطولة أيضاً، وبعيداً عن أية مواقف أيديولوجية، يستحقه كل من جهر بالمعارضة والثورة ولم يحالفه الحظ من قبل فأُسِر أو قُتِل، غير أن ذاكرة بني آدم دوماً ضعيفة، أو لنقل إنها أكثر تهيّؤاً للاحتفاء بالأبطال الحاضرين.

عن اليسار السوداني

في "النخبة السودانية وإدمان الفشل" يقول منصور خالد: "سبق القول بأن أغلب الأفكار التنظيمية التي جاءت بها الأنظمة الماركسية ليست كلها وليدة الفكر الماركسي الأساسي، مما يصح معه الادعاء بأن كارل ماركس ليس هو بالضرورة فيلسوف الأنظمة الاشتراكية المنتسبة له، بل يصح الزعم بأن كل المحاولات العملية لترجمة الرؤية الماركسية إلى واقع تطبيقي هي مستحدثات لينينية وستالينية، خالفها من خالف كما أيدها من أيد، مثل الدعوة للعنف الثوري والحزب الطليعي. والذي نريد قوله هنا هو أن ماركس ليس أكثر من صاحب نظرية اجتماعية تقدم تحليلاً للتاريخ وفق منهج معين، وصاحب فلسفة أخلاقية إنسانية تقارب الأديان في صرامة معاييرها القيمية، كما هو صاحب رؤية نبوئية لمجتمع حر تتحقق فيه العدالة والمساواة وترد فيه غربة الإنسان في عالمه، كل هذه الأفكار ليست إلا تتويجاً للفكر السياسي الاجتماعي الأوروبـي بدءاً بأرسطو وهراقليط وانتهاءً بهيقل".

يواصل منصور خالد: "إن الرأسمالية الغربية في سعيها لتطوير نفسها ومعالجتها للمشكلات الاجتماعية التي صاحبت التطور الرأسمالي "الاستغلالي" قد أخذت الكثير من أفكار ماركس ومن ذلك بعض الأفكار الواردة في "البيان الشيوعي". لهذا ظل أهل أوروبا الغربية، مع استنكارهم لكل ما انتهت إليه الماركسية في الشرق، يحفظون "للفيلسوف" ماركس مكانته باعتباره واحداً من أكبر مفكريهم، حتى إن حكومة ألمانيا الغربية طالبت منذ سنوات برعاية قبره حيث يرقد في مقبرة هايقيت بلندن. ونحتسب أن سقوط الإمبراطورية السوفيتية سيجعل الأوربيين ينظرون إلى

الإسهام الفكري لماركس الفيلسوف بالمزيد من الموضوعية، حتى وإن حسبوه مُحرفاً لأفكار أرسطو وهيقل بدلاً من النظر إليه باعتباره الأب الروحي لدولة الطغيان، وهذا هو ما يسميه البعض باسترداد الغرب لماركس. فالاشتراكية الديموقراطية تهدف، في الأساس، إلى إزالة التناقض المصطنع بين الاشتراكية والديموقراطية، وما جاءت تلك "الاصطناعية" إلا لدعوة المراكسة بأن تحقق الاشتراكية لا يتم إلا بتأجيج الحقد بين الطبقات والصراع النهائي بينها".

من بين عناوين عديدة في الكتاب أكثر اتصالاً بالتجربة السودانية الخالصة للحزب الشيوعي السوداني، مثل "السودان وطريق التنمية غير الرأسمالي" و"الصراع الشيوعي - المايوي" و"المرجعية النظرية للشيوعية السودانية"، اخترنا المقتطف أعلاه مما يعرض فيه المفكر السوداني المرموق للشيوعية بصفة عامة من حيث منشأ الفكرة الماركسية والواقع التطبيقي استناداً إلى "مستحدثات لينينية وستالينية"، وفي الغرب الأوروبـي بصفة خاصة. عمدنا إلى ذلك التجاوز في اقتطاف ما يتعلق بتجربة الحزب الشيوعي السوداني كما أوردها منصور خالد لسببين: الأول تلافياً لأي جدال سينشأ لا ريب انطلاقاً من تعقيدات التجربة الشيوعية السودانية الممتزجة بتعقيدات الواقع السياسي السوداني الحديث، والثاني أن غاية الاقتطاف هي النفاذ إلى منشأ الفكرة التي ظلّت حاضرة في وجدان المنتسبين إليها على امتداد التجارب العالمية بصورة مثالية أكثر مما دان لأصحاب التطبيق العملي الرائد للفكرة في الاتحاد السوفيتي نفسه.

في غضون جدال متعلق بالأحزاب السياسية السودانية في جلسة لا تخلو من الودّ كالعادة أيام الجامعة في مصر، وتحديداً عند احتدام النقاش في الجلسة التي ضمّت بضعة زملاء بعضهم متحمس لتطبيق الشريعة والآخر محايد إزاء الفكرة، أشار أحدهم إلى أن ميزة المصريين في التعامل مع الشيوعية أن كلمة شيوعي عندهم مرادفة لكلمة ملحد، وبغض البصر عمّا آل إليه النقاش بعدها فإن نظرة موضوعية تبيّن أن تلك بالفعل ميزة عندما ينظر إليها خصوم الشيوعيين من الإسلاميين تحديداً، حتى أولئك الذين

لا يؤمنون بالضرورة بأن الشيوعية مرادفة للإلحاد ولكن يبتهجون لدمج الكلمتين معاً في خاطر الناس بدافع الإقصاء في اللعبة السياسية التي هي حرب يجوز فيها كل شيء ويُجترَح فيها كل إثم على نقيض ما ينشط السياسيون للاعتراف به أمام الناس.

الواقع أن ميزة السودانيين أنهم لم يروا في الشيوعية مرادفاً للإلحاد، وذلك لسببين: الأول يتجلّى في روح الشخصية السودانية المتسامحة مع كل فكرة تطرقها في سماحة مهما تكن تلك الفكرة، والثاني أن السودانيين بطبيعتهم أكثر تسامحاً في التديّن تحديداً إلى الحد الذي أغراني كما أشرت مراراً بوصف الشخصية السودانية بكونها متصوفة وليست متدينة، وتفصيل ذلك متاح في "جينات سودانية".

لم يكن إذن التخويف بأن الشيوعية مبدأ مناقض للدين ليجدي مع قوم يقرؤون قوله تعالى "لكم دينكم ولي دين" وفق أعمق معانيه تسامحاً ولا يلوون عنق الآيات القرآنية ليّاً لانتزاع أكثر التفاسير تشدداً لكل آية متعلقة بالعقيدة. فإذا احتدم الجدل على أي نطاق سوداني حول أن الشيوعية جملة وتفصيلاً كفر فإن عبقرية التسامح العقدي السوداني تهرع إلى أجمل تفاسير قوله تعالى "ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء" قطعاً للطريق على محاولات سودنة محاكم تفتيش القلوب على الطريقة الإسلامية.

"الشيوعية كفرٌ" تجوز إذن فقط في سياق اللعبة السياسية غير النظيفة التي تبيح لكل طرف مشارك فيها استخدام ما يشاء من الأسلحة للإطاحة والفتك بخصمه، ولأن هذا الحديث ليس دفاعاً محضاً عن الشيوعية السودانية قدرَ ما هو تبجيل لروح التسامح السوداني وفهم السودانيين العميق للدين على أكثر من صعيد، فإن "تجّار الدين" أيضاً كثيراً ما أسيء استخدامها في المقابل لتشويه كل من يدعو إلى الله حتى إذا كان مخلصاً في مقاصده بما لا ينال من تقاليد وسماحة المجتمع الذي يدعو إلى الله فيه على طريقته وليس وفق مذهب استأثر بقطعية الصواب والفلاح لصالحه.

أقرأ استمرار الأحزاب العقدية - لا الشيوعية وحدها - التي تمثّل أفكاراً وأنظمة بادت حيث نشأت، أقرأ استمرار تلك الأحزاب عندنا على أنه انعكاس لوفاء و"عناد" الشخصية السودانية التي تصرّ في ولاءاتها على الاحتفاظ ببوصلة تشير باستمرار إلى المبدأ المعتنَق وليس إلى الفئة المنتصرة في أيٍّ من معارك السياسة والحياة متقلبة النتائج والأحوال. ذلك من الحميد في طباع السودانيين التي صحبتهم إلى الممارسة السياسية، ولكن مع ضرورة الانتباه إلى ثلاثة تحفّظات: الأول أن ظاهرة استمرار الأحزاب العقدية الآفلة متاحة في بلاد كثيرة وليست حكراً على السودانيين وحدهم، وإنْ يكن السودانيون من أكثر الشعوب استمساكاً بالنماذج الآفلة دون ضجر، وذلك لما أسلفنا الإشارة إليه من طبع الوفاء و"العناد" الغالب على الشخصية السودانية بصفة عامة. الثاني أن استمرار الأحزاب العقدية الآفلة عندنا لن يخلو من صور سلبية كثيرة مقابل الوفاء و"العناد الإيجابـي"، فالتشبّث بالمشاركة في اللعبة السياسية هو أحد أشكال إدمان الظهور واستمراء السلطة وإنْ من مقاعد المعارضة. التحفّظ الثالث يكمن في "العناد السلبـي" الذي لا يمكن النظر إليه بوصفه محمدة، و"العناد السلبـي" يعني أن تتشبّث برأيك بعد أن تنفد كل الحجج المسوغة له أمام الناس وأمام نفسك من قبل، والأجدر حينها - على مستوى العمل العام - إذا كان لا بد من الاستمرار في اللعبة السياسية هو التحلّي بقدر من المرونة يتيح الانتقال إلى مبدأ سياسي آخر أو تحوير الفكرة القديمة بما يستوعب التصحيحات اللازمة، إنْ لم يكن نتيجة الأخطاء فبحكم ضرورات سوْدَنة الفكرة نفسها التي لم تؤخذ في الحسبان من قبل.

لا ريب أن صور مشهدنا السياسي تغري وتوحي بقراءات متداخلة وأحياناً متناقضة ليس من الحكمة محاولة تحاشيها أو تنميقها بحال، فالمرونة التي أشرنا إلى أن كثيراً من أحزابنا العقدية المستوردة قد افتقدها هناك أحزاب أخرى قد عرفت الطريق إليها. من تلك الأحزاب ما هو طائفي، ومنها ما هو عقدي كذلك، بل إن الحركة السلامية نفسها قد اكتسبت وانتهجت من المرونة أقداراً وصلت كما رأى البعض إلى حدود أفرغت كثيراً من المبادئ والأفكار من جواهرها السامية التي نشأت انطلاقاً منها.

تبقى مهارة المزاوجة بين التمسك بالمبادئ والمرونة امتحاناً عسيراً على أي فرد، فضلاً عن الشخصية الوطنية بصفة عامة. الأحزاب السياسية في كل مكان تخوض الامتحان نفسه، غير أنها تستبدل كلمة المراوغة بكلمة المزاوجة، بحيث يصبح امتحانها الذي تجلس بضمير مستريح للإجابة على أسئلته هو مهارة المراوغة في التمسّك بالمبادئ، وأحزابنا السودانية مهما تباينت أفعالها وردود أفعالها ليست استثناءً على هذا الصعيد.

تخمة الثقافة السياسية

قبل نحو عشرة سنوات، وأثناء الإعداد للطبعة الأولى من كتاب "الشخصية السودانية في عيون صفوتها"، تطرّق الحوار مع البروفيسور عبد الله علي إبراهيم إلى شدة ولع السودانيين بالسياسة، وأدناه المقتطف المتعلق بذلك من الحوار:

● **بأي قدر كانت الشخصية السودانية نفسها مسؤولة عن عدم استقرار البلاد؟، هل كان السوداني متطلّباً أكثر مما ينبغي فيما يتعلق بطموحاته السياسية؟**

بداية لا أعتقد أنه كان هناك أي نوع من التواطؤ في السياسة السودانية، كان ثمة صراع شديد نشأ منذ بداية الحركة الوطنية، منذ الأربعينيات، ومنذ الحرب العالمية الثانية تشعر بأنه كانت هناك حركات وطنية عديدة، وهذا هو الذي استدعى الاهتمام الكبير بالسياسة من قبل الشعب كله، وأنا أعتقد أن هذا هو مكسبنا...

● **تسييس الشعب كله؟**

نعم تسييس الشعب حول تلك القضايا الوطنية.

● **ولكن ألا ترى أن اهتمام الشعب بالسياسة كان أكثر مما ينبغي؟**

إذا كان مطلوباً من الشعب أن ينفعل مع الديموقراطية فإنه يجب عليه أن يهتم بالسياسة إلى أبعد الحدود، فهو دائماً في حاجة إلى المعلومات ليتجاوب مع النظام الديموقراطي ويراقب الأجهزة المختلفة بالدولة.

● **هذا هو دور السياسي وليس رجل الشارع...**

إذا نجحت في تسييس رجل الشارع تكون قد بلغت من الديموقراطية أعلى مراتبها.

● **ولكن هل رجل الشارع اليوم في الغرب - الذي هو ديموقراطي بامتياز - مسيّس؟**

هو إجمالاً مسيّس، والغير مسيس توجد رغبة في تسييسه.

● **ما أعنيه أنهم نجحوا في إنشاء ديموقراطياتهم من غير أن يكون الشعب مسيّساً بالقدر الذي هو عليه شعبٌ مثل الشعب السوداني...**

عندما كانت دولهم تُبنى كان الشعب مسيّساً بدرجة أكبر، وإن كنت أصرّ على أنهم هناك لا يزالون مسيّسين بدرجة كبيرة، ينبغي أن يعرف رجل الشارع في أمريكا مثلاً ما يحدث في الخارج ليصوّت على أساسه لصالح هذا المرشح أو ذاك.

● **ولكن أمريكا اليوم تمارس دور شرطي العالم المعروف عنها من خلال تغييب المواطن الأمريكي عمّا يحدث في العالم، الشعب الأمريكي لا يعنيه كثيراً ما يجري خارج الولايات المتحدة إلا بالقدر الذي يؤثر على حياته في الداخل...**

قد يكون ذلك هو موقف الدولة وتوجهها الذي تحاول فرضه، ولكن قطاعات معتبرة من الناخبين الأمريكيين لها موقف مغاير، هناك حركات مثل "موف أون" وغيرها من الحركات غير الحكومية تسعى في اتجاه الاهتمام بالموقف الأمريكي مما يجري في نيكاراغوا مثلاً والحصول على معلومات صحيحة عن القضية الفلسطينية وغيرها وجعل كل ذلك عاملاً مؤثراً في تصويت الناخب الأمريكي في الانتخابات الرئاسية. لذلك أعتقد أنه من المهم جداً أن نواصل تنمية وعينا السياسي، السياسة هي في واقع الأمر وعي، ومن دون الوعي لا يمكنك أن تقع على أي إنجاز.

أما المقتطف التالي من كتاب البروفيسور عبد الله علي إبراهيم "ربيع ثورة أكتوبر 1964 م"، الصادر عن هيئة الخرطوم للصحافة والنشر عام 2013، فهو يومئ إلى نقيض وجهة نظر البروفيسور التي عرضها في حواره معي حول الاهتمام الزائد للسوداني بالسياسة، وإن تكن القراءة المتمهلة لرأي عبد الله علي إبراهيم أدناه تزيل اللبس حول التناقض الذي تغري به القراءة العجلى وتصعد بالرأيين المختلفين حول الجرعة السياسية لدى السودانيين إلى آفاق أوسع من الغنى والتلاقي. يقول البروفيسور في الفصل الأول من كتابه تحت عنوان "ثورة أكتوبر والجامعة: يوم هتفنا بعقلنا":

"لابسني أخيراً خاطر ملحاح أن ثورة أكتوبر، في حساب الخسارة، هي التي جرّدتنا من المؤسسة الأكاديمية، في خصائصها الأساسية في بلوغ الحقيقة "المجردة"، حين تسيّست جامعة الخرطوم تسييساً خرج بها عن طورها. فخلال ثورة أكتوبر خرج هذا البرج العاجي في مستوى هيئة التدريس، دعك عن الطلاب الذين فُطموا على السياسة، إلى العمل السياسي العام خروجاً فجّاً تساقطت به شرعية الجامعة الأكاديمية سقوطاً شنيعاً. وظلت المعارضة المدنية لنظم الطُّغَم العسكرية تقصد سوح جامعة الخرطوم تستحصل على كبش فداء من الطلاب في مقام المرحوم أحمد القرشي طه لزحزحة الطغمة الحاكمة عن السلطان".

يواصل البروفيسور عبد الله: "ولم تكن جامعة الخرطوم بعيدة عن السياسة من زاوية عناية طلابها بهذا الأمر دائماً منذ عهد الاستعمار. غير أن الذي جدّ في الأمر أن أكتوبر جعلت السياسة والسياسة الحزبية، لو تحرّينا الدقة، هي العليا والأكاديميات هي السفلى مما أفرغ الجامعة من ميزة الأصل والتأسيس. وأضرب لذلك مثلاً في المواجهة بين اتحاد الطلاب وهيئة التدريس التي عرفت باسم (معركة الميكروفونات) بعد انتفاضة أبريل 1985م. فقد بلغ استخدام الميكروفون في ميادين كلية الآداب والاقتصاد خاصة حدّاً لم يعُد معه المدرّسون قادرين على تبليغ أصواتهم بالمعارف لطلابهم في القاعات... وتوصلت الجامعة إلى حل وسط هو أن يكفّ الطلاب عن استعمال الميكروفونات طالما كانت المدرّجات منعقدة، وأن يعودوا إليها بعد انتهاء الدوام. ولم تلتزم التنظيمات قاطبة بنصِّ أو روح هذا الاتفاق. فانظر كيف أصبح التدريس هو الأدنى، وكيف أصبحت السياسة الحزبية هي الأعلى".

كلمات البروفيسور عبد الله أعلاه مَلْأى بالدلالات حول المراد بعنوان هذا المقال، ولو كنت أسعى إلى نصر عابر - على الأقل من باب الممازحة - على خلفية اختلاف وجهتَي النظر بخصوص اهتمام السوداني الزائد بالسياسة كما تبدّى في حواري مع البروفيسور الجليل قبل عشرة سنوات، لو كنت كذلك لما وجدت أروع من كلمات الرجل هذه لإثبات أنني على حق في نظرتي التي كنت أمررها من خلال الحوار ضد الاهتمام الزائد للسودانيين بالسياسة. ولكن مقام التحليل الموضوعي إضافة إلى دقة مقاصد عبد الله علي إبراهيم يقتضيان غير ذلك، فالأرجح أن الرجل كان ولا يزال مع تسييس رجل الشارع السوداني، ولكنه ينعى في المواضع المشار إليها من كتابه على ثورة أكتوبر تحميلَ مؤسسة أكاديمية رفيعة كجامعة الخرطوم ما لا تطيق من ثقل التطبيقات السياسية إلى حدّ الخروج بها عن مهمتها الأساس متمثلة في التعليم (بلوغ الحقيقة "المجردة" بحسب تعبير البروفيسور).

ولكن لا يزال بإمكاني، محتفظاً بموضوعية الرؤية والتقييم، أن أهنا بفرحة المنتصر لوجهة نظره مع مطالعة متمهلة أخرى لما كنت أرمي إليه

في الحوار، فمشكلة الاهتمام الزائد بالسياسة أنه لن يقف عند الوعي السياسي العميق وانعكاساته المنضبطة على الواقع، وإنما من شأنه أن يتخطى الوعي النظري المجرّد والرؤية العملية المنضبطة إلى المبالغة الحادّة في التطبيق. وبعيداً عن "معركة الميكروفونات"، وقبل انتفاضة أبريل 1985 وما تلاها، ظلت أبرز المظاهر السالبة لاهتمام السودانيين الزائد بالسياسة متمثلة في الاعتذار عن الإنتاج تعلّلاً بظروف اقتصادية قاهرة تعيشها البلاد بسبب فشل أو تعنّت نظام سياسي - أي نظام سياسي - حاكم، فقد كانت أعذار من ذلك القبيل غير مقنعة للأصدقاء العرب في محيط السكن أو الدراسة أو العمل (على اختلاف المراحل الزمانية والمكانية)، إذ كان بعض بلدان أولئك الأصدقاء والزملاء يعتمل في أتون حروب ضارية وصادراتُهم من المنتجات الزراعية تسير على وتيرة أيام السلم لا تعرقلها مشاكل السياسة في أقسى ذراها، والحرب ليست أقسى ذرى المشاكل السياسية فحسب وإنما ذروة التراجيديا الإنسانية كما هو شائع.

مواصلة العمل والإنتاج في غضون الحروب قصة متداخلة العوامل والمؤثرات في قراءة طبيعة الشخصية الوطنية عندنا في السودان مقارنة بالمحيط الإقليمي، فالاهتمام الزائد بالسياسة ليس هو العامل الوحيد المؤثر على هذا الصعيد. التأثير السلبـي الأعمق لعشقنا العظيم للسياسة يتجلّى في الانصراف عن الاهتمام بما وراء/قبل السياسة من أبجديات العمل وتفاصيله التي يجب ألاّ تنقطع بصرف البصر عن طبيعة النظام الحاكم، وبعيداً عن موقف كل فئة - بل كل مواطن - من مؤازرة ذلك النظام أو معارضته، وتلك واحدة من معضلات حياتنا المدنية التي لم نستطع التعامل معها بحكمة توازي عمق معارفنا واهتماماتنا السياسية التي لا تزال مغرية لأن توصف بكونها زائدة على الحاجة عند النظر إليها بصفة عامة وليس في غضون المشاعر المتأججة والمستحقة عند المنعطفات الثورية الحادّة كأكتوبر وأبريل وديسمبر تحديداً، ذلك رغم أن ضجر البروفيسور عبد الله علي إبراهيم كان بدافع واحدة من تجليات إدماننا السياسي مما تخلّل إحدى تلك الثورات المفصلية.

يواصل البروفيسور الجليل في المقام ذاته بما يخوّلني مساءلته في حميمية وتقدير (مع الانتباه إلى كل ما سبقت الإشارة إليه حول العميق من المراد بـ "تسييس السوداني" على اختلاف موقفَينا)، يخوّلني مساءلته عمّا إذا كان لا يزال عند رأيه حول ذلك التسييس وهو يقول: "جاءت ثورة أكتوبر 1964م للجامعة بسلطان السياسة. وبدلاً من أن تأخذ الجامعة منه بقدر حاجتها لبلوغ مجتمعها وتغييره، وجدناها قد أخذت ذلك السلطان كله، بقضّه وقضيضه، بغثِّه وثمينه، بما ينفع وبالزبد الذي يذهب جفاءً. لقد أعجب الجامعة دور الريادة السياسية فتنصّلت عن ريادتها بمقتضى تأسيسها: البحث عن الحقيقة. ومع ذلك استمسكت "ببقية أكاديمية" في القبول والترقيات والامتحانات، بفضل نفر ذوي كبرياء من الأساتذة والإداريين المجهولين تحت ركام ضجيج السياسة ولغطها الميكروفوني الغليظ".

مايكل أنجلو والثورة

"عزيزي، صديقي الطيب، كانت الذئاب تلتهم دائماً الحُملان، فهل ستلتهم الحملان الذئاب هذه المرة؟". في كتابه "الجماهير والسلطة"، الذي صدرت ترجمته العربية عن المركز القومي للترجمة ومركز المحروسة للنشر بالقاهرة عام 2018، وبعد أن يقتطف الجملة السابقة في بداية فصل بعنوان "كتلة الاتجاه المعاكس"، يقول إلياس كانتي الكاتب بلغاري المولد إسباني الجذور ألماني اللغة: "دُوِّنت هذه العبارة في خطاب أرسلته مدام جوليان إلى ابنها في أثناء الثورة الفرنسية. والرسالة تنطوي على صياغة موجزة لجوهر التحوّل إلى الاتجاه المعاكس. فقد عاش القليل من الذئاب حتى تلك اللحظة على الكثير من الحُملان، وآن الأوان حينئذٍ كي تجابه الحملان الكثيرة الذئاب القليلة".

يواصل كانتي: "ونحن نعرف أن الحُملان لا تأكل اللحم. لكن أهمية العبارة تتبدى تحديداً في عدم منطقيتها الظاهرية. فالثورات هي الوقت المناسب للتحول إلى الاتجاه المعاكس. فمن ظلوا مضطهَدين لأمد طويل للغاية ظهرت لهم فجأة أسنان. وعليهم تجاوز ما مروا به من تجارب مريرة. والتحول إلى الاتجاه المعاكس يشترط مجتمعاً طبقياً، فالفروق بين طبقات بعينها، حيث يكون للبعض حقوق أكثر من البعض الآخر، لا بد أن تظل موجودة لفترة ما، ولا بد أن تضطر الناس للشعور بها في حياتهم اليومية لأمد طويل قبل أن تنشأ الحاجة للتحول إلى الاتجاه المعاكس. فالجماعة الأعلى يكون لها الحق في إصدار الأوامر إلى الجماعة الأدنى، سواء جاءت هذه الجماعة عن طريق الاحتلال، فصارت متحكمة في شئون أهل البلاد، أو أنها نشأت من تراكم الأحداث في الداخل".

بتجاوز التعقيدات الفلسفية في الكتاب، وبصرف النظر عمّا يريده المؤلف تحديداً بمفهوم "الكتلة" في الباب الأول من الكتاب الذي أفرده لذلك، يبدو السؤال المقتطف عن مدام جوليان لابنها مغرياً بالوقوف عنده وملهماً بدرجة كبيرة. ولكن مع الإقرار بفلسفة السؤال البليغة وشاعريته المؤثرة في آن معاً، وبالتجاسر على إفراغ التساؤل من غلافه الشاعري بصورة موازية، ألا يبدو الأمر أكثر استقامة عندما نقول إنه في بعض المواقف المفصلية (والثروة إحدى ذرى تلك المواقف) تنقلب الحملان إلى ذئاب والذئاب إلى حملان في تبادل أدوار لا يختاره أي من الطرفين ويبدو قسرياً بامتياز؟

ليس بعيداً عمّا ورد أعلاه، بل تحت أضوائه الكاشفة، يطرح السؤال التالي نفسه، بافتراض جواز التعبير الشائع: هل يُعتبر الفنانون والمبدعون عموماً من الحملان الذين يمكن أن ينقلبوا في أتون الثورة إلى ذئاب؟ والإجابة التي سأهرع إلى تأكيدها - كوني بادرت إلى ذلك في مواضع سابقة مراراً - هي "لا" كبيرة وحاسمة. و"لا" هنا لا تعني أن الفنانين والمبدعين يحافظون على صفاتهم الوديعة خلال الثورات، بل تعني أنهم ليسوا بالحُملان ابتداءً بالضرورة، فمنهم الحمل ومنهم الذئب شأنهم شأن غيرهم من بني آدم وبنات حواء، وإنْ كان ثمة ما يميّزهم عن سائر البشر فهي القدرة على التعبير وفق النمط الفني الذي رُزقوا موهبته. وعليه، وبإفراغ الإقرار التالي من أية شاعرية في التعبير، تظل الحقيقة أن الحمل من الفنانين والمبدعين يظل حملاً والذئب يبقى ذئباً قبل الثورة وخلالها وفي أعقابها، وهو أمر كما نرى ينطبق على سائر البشر.

الاستثناءات موجودة بطبيعة الحال، لكنها تظل كذلك منطبقة على كل الناس لا على الفنانين والمبدعين وحدهم، فإذا صحّ أن حملاً من الفنانين قد انقلب إلى ذئب خلال ثورة ما فتماماً كما يمكن أن ينقلب أي من أفراد الشعب من حمل إلى ذئب تحت الظروف نفسها. وإن يكن الأدق أنّ الموقف الثوري الملتهب حينها قد كشف الذئب الذي كان مستتراً خلف وجه الحمل الوديع، أو أن التنمّر (في غياب صيغة فعل مماثلة ودارجة مشتقة من الذئب)

خلال الثورة صفة عارضة على الحمل بمقتضيات الفعل الثوري الحاد والملتهب. كل ذلك مع ضرورة تذكّر أن الوداعة ليست خيراً كلها وأن الشدّة (وأحياناً الغلظة) ليست شراً دوماً، والأهم الانتباه إلى أن الموازنة المثالية بين الحالتين/الطبعين في النفس البشرية الواحدة هي ضرب من المستحيل.

بحسب كَهْل إيطالي ودود يبدو مبتهجاً خلال إيصاله عملاء المصنع الذي يعمل به كسائق بمرتبة مرشد سياحي يجيد الإنجليزية إلى حد مُرضٍ ويستوعب تاريخ بلاده بعمق، بحسب ذلك السائق الودود فإن ساحة مايكل أنجلو في فلورنسا أقامها أهل المدينة ليس تخليداً لابنهم بوصفه فناناً عبقرياً فحسب وإنما بصورة موازية وأساسية لدوره البارز في دعم قضية الجمهورية عام 1527، حين طرد مواطنو فلورنسا الأصليين عائلة ميديشي الحاكمة ووضعوا بدلاً منها حكومة جمهورية، وهذا ما تشير إليه المراجع التاريخية بتفصيل يزكِّي نزعة الفنان العبقري الثورية ويدعم فرضية تخليد أهل فلورنسا له على خلفيته الثورية وليس لعبقريته الفنية مجردة من النزعة الثورية المبرهنة بمواقف تاريخية من الطراز الخالد.

في ضوء ما سبق، هل كان مايكل أنجلو ذئباً؟ في الواقع ترجح المراجع عموماً أن الرجل كان غريب الطباع - حتى في حياته الخاصة وتصرفاته الشخصية - أكثر من كونه ثورياً إلى حد استحقاق لقب "ذئب" بالتداعيات التي أرادتها مدام جوليان في رسالتها إلى ابنها أثناء الثورة الفرنسية. مقابل ذلك بدا ليوناردو دافينشي - كنموذج لعبقرية متفردة مجايلة إلى حد ما لعبقرية مايكل أنجلو - أكثر وداعة بما يغري باستحقاقه لقب "حمل". ففي تقرير لكلوديا كالب، نقلاً عن النسخة العربية لمجلة National Geographic عدد مايو 2019، يرِد هذا التعليق إلى جوار بعض رسومات دافينشي المعقدة لبعض الآليات المصممة للاستخدام الحربي: "كان ليوناردو المحب للسلام، والذي يُرجَّح أنه كان نباتياً، قد وصف الحرب بأنها جنون وحشي. لكن هذا العبقري المبدع اجتُذِب إلى تصميم الأسلحة من رعاته وكذلك من التحدي الإبداعي المتمثّل في تصوير أدوات تضاعف قوة البشر. واتسم جل إبداعاته من الأسلحة بالطموح الجامح.. ولم يُصنع أي

منها قط". ولعل دافنشي قد عمد بعبقريته إلى تصميم آلات حربية عصيّة على التنفيذ للجمع بين إرضاء رعاته وتحدّيه الفني على طرف ونزعة الحملان التي تسكنه على الطرف المقابل من المعادلة التي يبدو حلُّها مستحيلاً.

في ضوء القبسات أعلاه من سيرتَي مايكل أنجلو وليوناردو دافينشي على سبيل المثال العابر جداً للمبدعين تجاه الثورة والحرب، بغض الطرف عن المنزلة الفنية السامية التي يحظى بها كلاهما، وبالتركيز على ما عرضنا له بتفصيل سابق في أكثر من مقام، نعود لتأكيد أن سيرة المبدع مع الثورة لا تختلف عن سيرة غيره من البشر سوى في كونه مهيّأً بما رُزق من الموهبة للتعبير عمّا يعتمل في عقله وقلبه من مواقف ومشاعر تجاه الثورة، أية ثورة ومهما تكن تلك المواقف والمشاعر.

الثورة والكُتّاب

رأينا في "مايكل أنجلو والثورة" مثالاً عابراً، وقابلاً للاختلاف حول مُفادِه بطبيعة الحال، على أن المبدعين لا يُخلَّدون دوماً بسبب أعمالهم العبقرية فحسب وإنما لآرائهم السياسية ومواقفهم الثورية كذلك، وأحياناً قبل ذلك.

وإذا كان المبدعون ينظرون إلى الكلام أعلاه بمثابة الاتهام جملةً، فإنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي إزاء تفاصيل ذلك الاتهام، بل يمتدّ دفاعهم عن أنفسهم في هذا المقام إلى حدّ قلب التهمة إلى شرف يلخّصه مفهوم "الالتزام" - في الفن والأدب والفكر - الذي يرى أن قضية واحدة جديرة بالاستحواذ على كل همسة ولمسة ونفَس من أنفاس المبدع.

غير أن "الالتزام" يغدو في كثير من الأحيان كالسحر الذي ينقلب على الساحر، وذلك عندما تصبح القضية التي ينافح دونها الفنان الملتزم خاسرة. وانقلاب القضية من منزلة "مقدسة" إلى مرتبة "خاسرة" ليس له علاقة بجوهر القضية نفسها، فأغلب القضايا تحمل أفكاراً راقية وحالمة، ولكن الانقلاب يحدث عادة عندما تُفرَغ القضية من مضمونها الآسر للجماهير إما بافتضاح نفاق بعض زعمائها أو من خلال لعبة ماكرة (ولا نقول قذرة) مما يجوّزه أرباب السياسة تأسيساً على بعض تعريفاتها الشهيرة. والحق أن لعبة الحياة بصفة عامة لا تقلّ تورّطاً في الاتّساخ عن لعبة السياسة، ولكن يبدو أن السياسة هي الأكثر جرأة على مواجهة المعاني والأهداف المتداخلة والملتبسة للبشر في الوجود.

الثورة هي أبرز بواعث "الالتزام" للمبدعين وللناس بصفة عامة، فالمواقف الثورية - الجماهيرية تحديداً - هي مواقف لحظية متأججة لا تحتمل تأجيل القرار حول الوقوف معها أو ضدها خاصة بالنسبة للنفوس والأرواح الثائرة كتلك التي يشتهر بها الفنانون والمبدعون. وإن كنت أرى، كما أشير دوماً، أن ما يميّز المبدعين قدرتُهم على التعبير عبر ما منحهم الخالق من المواهب، أما الطباع والأمزجة فهي قسمة عادلة بين بني آدم وبنات حواء، تختلف بشدّة ولكن ليس رجوعاً إلى حرفة أو طبقة من أي قبيل.

"الملتزم" لا ينتظر ثورة أو مواقف متناحرة لينحاز إلى أحدها، فالفنان قد يُبدع التزامه مثلما يبدع فنه، وهنا يغدو موضوع "الالتزام" أشبه بالمحبوب الذي يتخذه الشاعر المدلّه فلكاً يدور عليه حباً وكرامة وهو يزعم أن لا حيلة له في الأمر. لا مانع إذن من أن يبرز على هذا الصعيد شعراء العرب القدامى بوصفهم ملتزمين لم يكتفوا باختراع مواضيع التزامهم عبر عشقهم وإنما ابتداءً بالتنافس على الانحياز إلى الحاكم الممدوح صاحب السلطة المطلقة في زمن لم يكن متداولاً خلاله مفهوم الانحياز إلى الجماهير التي كانت هي نفسها تدور على فلك الحاكم بالإذعان المطلق.

لكن قراءة معاكسة تماماً للفكرة أعلاه ممكنة أيضاً، فنقيض "الالتزام" هو "الفن للفن"، وعليه فإن قراءة مضادة يمكن أن تجعل شعراءنا القدامى من أنصار المذهب الثاني لأنهم أساساً انصرفوا إلى العناية بفنهم ليخرج في أزهى صوره بغض النظر عن الممدوح الذي قد يكون خصم الحاكم الذي ابتدؤوا بمدحه إذا بخل عليهم هذا الأخير بالعطايا أو أفلح شياطين البلاط في الإيقاع بين الحاكم وشاعره الأثير. وسيبرز المتنبـي هنا كأحد أشهر الأمثلة، والأرجح عندي أنه كسائر شعرائنا القدامى يضطرب بين أنفة الالتزام في كنف حاكم مثالي من وجهة نظره وبين التداعي أمام أي ممدوح قمين بتقديم العطايا الجزيلة الكفيلة بضمان لقمة عيش مترف والتمتع بمكانة اجتماعية يراها الشاعر جديرة بمثله من أصحاب البضائع الفنية التي كانت ثمينة بطريقة فريدة في ذلك الزمان البعيد.

في سياق مختلف زماناً ومكاناً ومشابه في دلالاته على تقلّب وارتباك مفهوم "الالتزام" بحسب السياق، يمكن أن نقرأ المقتطف التالي لغوستاف لوبون في كتابه "سيكولوجية الجماهير". يقول لوبون في مقدمة الكتاب تحت عنوان "عصر الجماهير" في سياق حديثه عن الكتّاب بصورة مباشرة: "إن الكتّاب المقربين من برجوازيتنا الحاكمة والذين يعتبرون أفضل ممثلين لأفكارها الضيقة ووجهات نظرها المحدودة وشكوكيتها المختزلة وأنانيتها المفرطة أحياناً قد أخذوا يشعرون بالهلع والخوف أمام هذه السلطة الجديدة التي يرونها تبزغ وتكبر أمام أعينهم. وهم لكي يحاربوا هذا الاضطراب الذي يصيب النفوس راحوا يوجهون النداءات اليائسة للقوى الأخلاقية للكنيسة، هذه الكنيسة التي طالما احتقروها في الماضي".

يواصل لوبون: "وقد أخذوا يتحدثون عن إفلاس العلم ويذكّروننا بتعاليم الوحي وحقائقه. ولكن هؤلاء المعتنقين الجدد للإيمان ينسون أنه إذا كانت العناية الإلهية قد مسّتهم أخيراً، فإنها لا تمارس نفس التأثير على الآخرين غير المكترثين بمشاكل الدار الآخرة. والجماهير لم تعد تريد اليوم آلهة كان أسيادها السابقون قد تنكروا لها بالأمس وحطموها، فالأنهار لا تعود إلى منابعها".

المثال أعلاه صارم في التعبير والمضمون، وبرغم وروده في سياق أوروبي محدّد قبل أكثر من مائة وخمسة وعشرين عاماً، فإنه زاخر بالدلالات المغرية بالتأمّل على اختلاف الأزمنة والأمكنة والحالات: موقف المفكرين من الثورة، الأدب والالتزام، استغلال الدين كوسيلة، التحول في المواقف بين طرفي نقيض، المصالح الشخصية كمحرّض أساس للبشر، وغير ذلك من الإشارات الفارقة التي تؤكد أن ما بين بني آدم - على اختلاف أفكارهم ومشاعرهم ومقاماتهم - والمثاليات التي يدعون إليها إنما هو كما بين السماء والأرض من البعد واستحالة اللقاء.

الثورة والجماهير

بعيداً عن الانقلابات العسكرية التي تسمِّي نفسها ثورة، تستحوذ الجماهير على دور البطولة الرئيس في أية ثورة، حتى إذا كانت هناك فئات سياسية أو نقابية أو اجتماعية خطّطت للثورة - أية ثورة - وأدارت رحاها، ذلك بصرف البصر عن مرحليّة الزمان وخصوصية المكان حيث تشتعل الثورة.

و"دور البطولة الرئيس" كلمة مستحقة إقراراً بواقع الثورة، أية ثورة باستثناء الانقلابات العسكرية التي تزعم لنفسها صفة الثورية. فالثورة إنْ لم تكن قد انطلقت بمبادرات جماهيرية مباشرة فإنها لا تكتمل فتكتسب شرعيتها وتحقق من ثمّ انتصاراتها دون مباركات وتفاعلات جماهيرية حاشدة وهادرة ومشتعلة.

برغم سحرها الذي يشتد طغياناً خلال الثورات بصفة خاصة، لا يمكن الزعم بأن الجماهير مقدّسة على إطلاق القول، فقد تندسّ بين الجماهير النقية التي أججت الثورة بإخلاص فئاتٌ ترتدي مسوح الجماهير الثورية شكلاً وتخاتل في المضمون، ومن فئات الجماهير بالضرورة ما تعمل على إبطاء عجلة الثورة ثم دفعها إلى الاتجاه المعاكس الذي كانت تنعم خلاله تلك الفئات بالفائدة، وهو ما يُعرف بالتأجيج لثورة مضادة لا تراها تلك الفئات المستفيدة خيانة بحال.

ولعل أبرز الفئات التي تخلع عن الجماهير صفة القداسة الفئة الصامتة التي تجلس متفرجة، إمّا لأنها لا تحسن سوى الفرجة وإما لأنها تنتظر الكفة التي سترجح لتميل معها يميناً أو يساراً بحسب اتجاه الريح المنتصرة، وقد

يحدث ذلك الانحياز من قبل الجماهير المتفرجة إلى الفئة المنتصرة في الحالة الأخيرة من باب الضعف والسلبية أو على سبيل الانتهازية، وبرغم أن النتيجة تبدو واحدة فإن الفارق بين الموقفين كبير على صعيد التشريح والتخريج الأخلاقي للمواقف الثورية والإنسانية.

في مقدمة كتابه "سيكولوجية الجماهير" التي أشرنا إليها من قبل، تحت عنوان "عصر الجماهير" يقول غوستاف لوبون: "وهذه الجماهير التي ابتدأ الناس يتحدثون عنها بكثرة لا تزال معرفتنا بها ضعيفة جداً (الحديث عن أوروبا قبل أكثر من مائة وخمسة وعشرين عاماً). فبما أن علماء النفس المحترفين قد عاشوا بعيداً عنها فإنهم تجاهلوها باستمرار. ولم يهتموا بها إلا من خلال الجرائم التي قد ترتكبها. وهناك جماهير مجرمة بدون شك، ولكن هناك أيضاً جماهير فاضلة، وجماهير بطلة، وجماهير أخرى عديدة أيضاً. وجرائم الجماهير لا تشكل إلا حالة خاصة من نفسيتها، ولا يمكننا التعرف عليها فقط من خلالها إلا إذا كان بإمكاننا معرفة الفرد من خلال عيوبه وحدها".

في المقتطف أعلاه، وبرغم دفاع لوبون عن الجماهير بصفة عامة، فإن الفئة الفاضلة من الجماهير تبدو في سياق حديثه كما لو كانت الحالة الأقل شيوعاً. والأرجح أن الأمر بدا بالفعل كذلك حينها، ليس لأن الشر كان طاغياً على الجماهير في تلك الأوقات ولكن لأن الفئات الممسكة بزمام الأمور على كل صعيد في الدولة كانت بعيدة عن الجماهير جسداً وروحاً، وهو ما ضرب له غوستاف لوبون مثالاً بموقف علماء النفس.

ببعض الجرأة يمكن القول بأن الصفات الغالبة على الجماهير حينها لم تكن بالفعل إيجابية، ولكن ذلك يجد مبرراً دامغاً له في القهر الذي كانت الجماهير تعيشه، وليس منتظَراً من أي فرد أو أية فئة - مهما تبلغ من المثالية في الطباع والدوافع - أن تحتفظ بنوايا حسنة تجاه من يقهرها متعمّداً ويبرّر لذلك بأسباب أزلية وفطرية مزعومة.

قبل بضع فقرات من موضع كلام لوبون السابق في الكتاب، يتحدث المفكر الفرنسي الموسوعي عن الجماهير بموضوعية جديرة بالوقوف

عندها بعيداً عن التحقير والتمجيد اللذَين تأرجحت عبرهما النظرة التي حظيت بها الجماهير عبر العصور: "إن الجماهير غير ميّالة كثيراً للتأمّل، وغير مؤهلة للمحاكمة العقلية. ولكنها مؤهلة جداً للانخراط في الممارسة والعمل. والتنظيم الحالي يجعل قوتها ضخمة جداً. والعقائد الجديدة التي نشهد ولادتها أمام أعيننا اليوم سوف تكتسب قريباً نفس قوة العقائد القديمة: أي القوة الطغيانية والمتسلطة التي لا تقبل أي مناقشة أو اعتراض. وهكذا نجد أن الحقوق الإلهية للجماهير قد أخذت تحل محل القانون الإلهي للملوك".

عدم ميل الجماهير للتأمّل وعدم قابليتها للمحاكمة العقلية ليسا بالعيب، ولكن هناك من يزعم أن للجماهير ذلك الميل وتلك القابلية، ومن ثم ينشأ الخلاف في الغالب فتُطلب للجماهير مكانة لم تزعمها لنفسها ابتداءً. ما تريده الجماهير هو حقها في العيش الكريم، هكذا بالخط العريض تاركة التفاصيل الدقيقة تحت العنوان لمن يمثلها من النخبة، ولكن الأخيرة كثيراً ما (دوماً؟) تتخذ تفويض الجماهير ذريعة لتمرير مآربها الشخصية، أو لتمرير رؤيتها الخاصة بتعبير أقل حدة.

من الصعب أن تجتمع الجماهير، حتى الفئات المتجانسة، على رؤية فكرية واحدة، بل إن ذلك يكاد يكون مستحيلاً. ولكن ما أيسر أن يتم حشد أعداد تفوق الحصر والخيال من البشر انطلاقاً من توجه عاطفي شديد الانفعال يتخذ من موقف عقلاني لا غبار عليه منطلقاً له. يؤكد لوبون تلك الرؤية بقوله: "إن نفسية الجماهير تبين لنا إلى أي مدى يكون تأثير القوانين والمؤسسات ضعيفاً على طبيعتها الغرائزية العنيفة. كما وتبين لنا إلى أي مدى تبدو عاجزة عن تشكيل أي رأي شخصي ما عدا الآراء التي لقنت لها أو أوحيت إليها من قبل الآخرين. ولا يمكن للقواعد المشتقة من العدالة النظرية الصرفة أن تقودها. وحدها الانطباعات التي يمكن توليدها في روحها يمكنها أن تجذبها".

يصحّ إذن القول بأن الثورة صنيعة الجماهير التي تتم في العادة تهيئتُها للثورة من قبل فئة ما، ثم يرى كثيرون بعد أن تتشابك الخيوط في "اللعبة الثورية" - والفئة المحرضة على الثورة ليست استثناءً في هذا المقام - أن

من حقهم أن يسرقوا الثورة من الجماهير عند منعطف ما بطريقة أو أخرى، ولن تعجز الفئة السارقة بعدها عن البحث عن بديل لائق لمصطلح "السرقة".

إما كلهم خونة وإما كلهم شرفاء

أخطأت الحركة الإسلامية في الحكم على أكثر من صعيد بما قد يصل إلى حد تدمير مؤسسات الدولة وتشويه الشخصية السودانية قياساً إلى المعالم التي تواضع عليها السودانيون على امتداد تاريخهم الحديث وباستلهام قرون عديدة متداخلة وثرية بالثقافات والحضارات المختلفة. ذلك من جهة الحكم العام على تجربة الحركة مع المجتمع الذي تنزّلت بأفكارها السامية على أرضه، وهذه ليست هيّنة بحال.

أمّا على صعيد الخيانة، فلا يمكن تمرير ذلك الوصف إلا بالإسقاط الاجتماعي أعلاه، ممثلاً في محاولة إعادة صياغة قيم المجتمع وفق معايير جديدة هي التديّن ولكن وفق رؤية ليست قطعية الدلالة والصحة بحال. من وجهة النظر السياسية، تبرأ الحركة الإسلامية من تهمة الخيانة ليس بسبب مثالية المنتمين إليها بل لسعة صدر السياسة التي لا تعترف في قواميسها للخيانة بمكان إلا عند الحاجة إلى محاكمة المختلفين في الرأي عندما تصل حدود الخصومة إلى الفجور.

القول بأن المنتسبين إلى أي حزب سياسي خونة لأنهم تحالفوا مع قوى خارجية ليس عارياً من الصحة تماماً، بشرط أن يشمل الجميع، فمَن مِن الأحزاب والكيانات السياسية لم يتعامل مع قوى خارجية؟ بل مَن مِنها لم يوغل في التعاون مع قوى خارجية أو التودّد إلى بعض مَن كانوا أعداء الأمس من أجل تحقيق ما يرى أن مصلحة البلاد غير ممكنة بدونه؟

تستحق السياسة نفسها صفة الخيانة إذن إذا كان مفهوم الشرف أن يتخذ الواحد قائمة من الحلفاء وأخرى من الأصدقاء فيثبت عليها أبدَ الدهر.

ولكي نكون منصفين مع السياسة وأهلها في هذا المقام الخطير تجب الإشارة إلى أن الحياة نفسها تستحق صفة الخيانة إذا كان مناط الوفاء هو الالتزام بالأسماء التي تشملها قائمتي الحلفاء والأعداء دون تغيير على تقلّب أحوال الزمان. سيُعجِب ذلك الساسة على اختلاف مشاربهم على الأرجح، وهو حقهم بالنظر إلى مواجهة حقيقة الحياة، ولكن مع تحفّظ هام وعريض، فالسياسة مقارنة بسائر مجالات الحياة تبدو بالفعل الأكثر استحقاقاً للقب "لعبة غير نظيفة"، وفق الصيغة الأكثر تهذيباً للتعبير الشائع. فتأرجُحات الساسة بين المواقف إذا بدت قسرية في بعض الأحيان، فإنها اختيارية واستباقية في الغالب من الأحيان.

في "العقد الاجتماعي"، الترجمة العربية لعادل زعيتر عن الدار الأهلية للنشر والتوزيع في عمّان عام 2015، يقول جان جاك روسو: "يستنتج مما تقدم كون الإرادة العامة صائبة دائماً، وأنها تهدف إلى النفع العام دائماً، ولكنه لا يستنتج من ذلك اتصاف شورى الشعب بمثل تلك الإصابة دائماً، ونريد ما فيه خيرنا دائماً، ولكننا لا نبصر ذلك دائماً، ولا يُرْشى الشعب مطلقاً. غير أنه يُخدَع غالباً، فقط، يلوح أنه يريد ما يكون سيئاً. ويوجد، في الغالب، فرق كبير بين إرادة الجميع والإرادة العامة. فالإرادة العامة لا تبالي بغير المصلحة المشتركة، وتبالي الإرادة الأخرى بالمصلحة الخاصة، وهي ليست غير حاصل العزائم الخاصة. ولكن انزعوا من هذه العزائم نفسها أكثر وأقل ما يتهادم تبصروا بقاء الإرادة العامة حاصل الاختلافات".

روسو في المقتطف أعلاه، في الباب الثاني من الكتاب تحت عنوان "أيمكن أن تضل الإرادة العامة؟"، ليس معنيّاً بخيانة أو شرف الأحزاب السياسية وإنما معني بما أسماه "الإرادة العامة" التي يشير إلى أنها تختلف كثيراً عن "إرادة الجميع". وإذا كان الفيلسوف الفرنسي الشهير يرى أن "شورى الشعب" لا تتصف بالإصابة دائماً، فإن ما يرمي إليه بدوام صواب الإرادة العامة ينطوي على معاني فلسفية بعيدة، فضلاً عن كونها قابلة للجدل، والمهم في ذلك أنه وعلى مدى الكتاب لا يعمد إلى اصطفاء فئة بعينها أو حتى شكل حكم بعينه على أنه الأمثل بلا أخطاء. وفي الباب الثالث

يصل إلى أنه "لا يلائم كل شكل للحكومة جميع البلدان"، وتلك هي العبرة الكبرى التي تفصح عن أن حقيقة الحل السياسي المثالي من البعد بحيث لا يجوز لحزب ما أن يزعم امتلاكها، فضلاً عن تخوين الأحزاب السياسية الأخرى لأنها لا تسعى إليها.

يواصل روسو: "وإذا ما تشاور الشعب الخبير بما فيه الكفاية، ولم يكن بين المواطنين أي اتصال، فإن العدد الكبير والاختلافات الصغيرة يسفران عن الإرادة العامة دائماً، ويكون القرار صالحاً دائماً. ولكن العَصَبَات إذا ما قامت وتألقت جمعيات جزئية على حساب الجمعية الكبرى، فإن كل واحدة من هذه الجمعيات تصبح عامة بالنسبة إلى أعضائها، وذلك على حين تبقى خاصة بالنسبة إلى الدولة". لا يزال الفيلسوف الفرنسي مع مفهوم "الإرادة العامة" الذي يرى ما تسفر عنه من قرارات "دائماً صالحاً"، وهذه كما نرى فكرة تنطوي على تبجيل ما يصدر عن الشعب وفق نمط بعينه، لا نقول بعيداً عن تبجيل أو تخوين الكيانات السياسية وإنما بمنأى من تبجيل الشعب نفسه.

وفي معرض بحثه عن "علامات الحكومة الصالحة"، يقول جان جاك روسو: "إذن عندما يُسأل إطلاقاً عن أصلح حكومة يوضع سؤال معضل كغير محدد. وإن شئت فقل: إن لهذا السؤال حلولاً صالحة كثيرة كثرة التراكيب الممكنة في أوضاع الشعوب المطلقة والنسبية، ولكنه إذا ما سئل عن العلامة التي يمكن أن يعرف بها كون أحد الشعوب محكوماً فيه حكماً صالحاً أو سيئاً اختلف الأمر، وأمكن حل المسألة الواقعية. ومع ذلك فإنها لا تحل مطلقاً، وذلك لأن كل واحد يرغب في حلها على شاكلته، ويثني الرعايا على الراحة العامة، ويمتدح المواطنون حرية الأفراد، فيفضل أحدهم ضمان التصرفات، ويفضل الآخر ضمان الأشخاص ويرى أحدهم أن أصلح الحكومات أشدها، ويذهب الآخر إلى أن أصلحها ألينها. ويود هذا أن يعاقب على الجرائم، ويود ذاك منع وقوعها. ويجد أحدهم أن من الجميل أن يُخشى من الجيران، ويحب الآخر أن يُجهَل من قِبَلهم. ويُسر أحدهم بتداول النقد، ويتطلب الآخر أن يحوز الشعب خبزاً. حتى أنه إذا ما اتفق حول هذه النقاط

وما ماثلها فهل يعني هذا تقدمنا أكثر من ذي قبل؟ وبما أنه يعوز المقادير الأدبية قياس دقيق فإذا ما اتفق على العلامة فكيف يتفق على التقدير؟".

كما في العنوان الرئيس للمقتطف أعلاه، يبحث روسو عن أصلح الحكومات وأسوئها وليس عن أشرف الحكومات وأكثرها خيانة. ولا يعني ذلك أن مصطلح الخيانة محذوف تماماً من قاموس روسو أو أن تداعياته لم تكن متاحة في مجتمعه حينها وإلى اليوم. كل ما هنالك أن مصطلح "الخيانة" يبدو زئبقياً في لعبة السياسية، لذلك فإن من الحكمة الكف عن ابتذال المصطلح ونقيضه على حساب هذا الحزب ولحساب ذاك. ولا نقول إن الساسة يجهلون تلك الحقيقة، ولكنهم من المكر بحيث يروّجون لنقيضها ادّعاءً للفضيلة واتهاماً للخصوم بأبشع الرذائل فيما يظنونه مباحاً في اللعبة غير النظيفة للسياسة.

يفصح روسو عن رؤيته للحكومة الصالحة والأخرى السيئة، وهي رؤية تبدو شديدة العمومية تصعب قراءتها بمعزل عن سياق "العقد الاجتماعي" بأسره. والنداء الذي يوجهه روسو في نهاية المقتطف التالي حريٌّ على كل حال بالنظر بمنأى من شهوتَي التخوين والتبجيل المتقابلتين: "الحكومة التي يعمرها المواطنون ويزيدونها أكثر من قبل، وذلك من غير عون خارجي أو تجنيس أو جاليات، هي أصلح الحكومات لا ريب. وإن الحكومة التي يقل رعاياها ويفنون هي أسوأها. فيا أيها العادون! الآن أترك لكم أمر الحساب والقياس والمقابلة".

الخيانة والخيانة العظمى

نوغل تحت العنوان أعلاه في مزيد من الدقة حول مفهومَي الخيانة والشرف في السياسة، وقد أشرنا إلى أن المفهومين غير واضحين بصورة قطعية إلى حدّ أنهما كثيراً ما يتداخلان بل يتشابكان في الحياة نفسها بصفة عامة، فضلاً عن السياسة بوصفها إحدى أكثر نواحي الحياة قابلية لاستيعاب المتناقضات من المفاهيم والأفعال.

نحن إذن في مواجهة المزيد من التعقيد مع هذا التدقيق الذي نزمع القيامَ به، فإذا كانت الحال على ما أشرنا إليه من الالتباس مع الخيانة والشرف، فإنها ليست أقلّ التباساً مع الخيانة والخيانة العظمى. وإذا كانت الغاية من هذا التدقيق هي محاولة الوقوف على ما يصحّ تمريرُه على أنه مناورة تستوعب صفة الخيانة من منطلق اللعبة السياسية بلا حرج كبير، وما يجب الاتفاق عليه باعتباره خيانة كبرى لا تقبل المجادلة، فإنني لن أتحرّج من التجرّؤ على القول مقدّماً بأن الاتفاق على الحالة الأخيرة يكاد يكون مستحيلاً بدوره في ظل لعبة السياسة التي تنطلق من المصلحة إلى المصلحة في رحلة تبرّر دوافعُها وغاياتُها كلَّ وسيلة ممتطاة خلال الرحلة.

يقدّم فريدريك نيتشه في كتابه "إنساني مفرط في إنسانيته"، الترجمة العربية عن منشورات الجمل ببيروت وبغداد سنة 2014، مثالاً جديراً بالنظر على إشكالية فض الاشتباك بين ما هو أخلاقي وما هو لاأخلاقي: "لم تكن الأنانية والغيرية هي الثنائية التي حددت تمييز الناس لما هو أخلاقي وما هو لاأخلاقي، ما هو خير وما هو شر، بل ثنائية الارتباط بالأعراف التقليدية أو التنصل منها. أما كيف نشأت تلك الأعراف فذلك ما يظل أمراً غير مهم،

وعلى أية حال فإن ذلك لم يكن من منطلق اعتبار الخير والشر أو أي ضرب من ملزم وجوبـي محايث، بل بغاية حفظ مجموعة أو شعب وضمان بقائهما في المقام الأول. كل عادة خرافية متأتية عن تأويل خاطئ لصدفة ما تفرض تقليداً يكون اتّباعه سلوكاً أخلاقياً، وبالتالي يكون التنصّل منه سلوكاً يلحق ضرراً أكبر بالمجموعة مما يلحق بالفرد".

مادلين أولبرايت، في كتابها "الجبروت والجبّار" THE MIGHTY & THE ALMIGHTY، الترجمة العربية صادرة عن الدار العربية للعلوم ببيروت سنة 2007، تقترب في المقتطف التالي أكثر من اللعبة السياسية وهي تشير إلى ضرورة عدم الكف عن محاولة الإصلاح رغم إقرارها بحتمية الصراع، وهو ما يشكل مدخلاً أكثر واقعية للتعامل مع الأخلاقي واللاأخلاقي يتجاوز التعثّر المتواصل عند عقبة مفهومي الشرف والخيانة: "لذا يجب ألا يكون لخلافاتنا أهمية كبيرة من حيث المنطق. وينبغي للناس من مختلف الأمم والمعتقدات أن يكونوا قادرين على العيش بانسجام. غير أن الفجوة بين ما يجب أن يكون وما هو قائم بالفعل تشكّل مصدراً متكرراً للأحداث المثيرة طوال وجودنا البشري. وقبل عقود، حذّرنا رينولد نيبور من أنه لا يمكن ترويض وحشية الأمم والجماعات بصرف النظر عن مقدار الجهد الذي نبذله. فقد كتب أن "الصراع الاجتماعي أمر محتوم في التاريخ البشري، وربما حتى نهايته". وقد أقرّ بأن الصالحين والحكماء قد يسعون إلى تجنّب الكارثة، لكنهم لن يستطيعوا أن يجاروا المخاوف والطموحات التي تدفع الجماعات إلى المواجهة. لقد كان نيبور حكيماً في التوصل إلى هذا الحكم الكئيب قبل الحرب العالمية الثانية، إذ إنه لم يكن يتفاعل مع الحرب، وإنما يتوقعها".

تواصل أولبرايت مطلبها تجاه ما يمكن وصفه بالمثالية الواعية، دون إنكار حتمية الصراع ولكن بمنأى من الولوج إلى معضلة محاولة فك شفرة مصطلحات الخيانة والشرف: "إذا كان نيبور محقاً، فإن السعي لتحقيق السلام سيكون شاقاً على الدوام. ومع ذلك لا يسعني أن أقبل فكرة عدم قدرتنا على فعل شيء لتحسين الحالة الإنسانية لأن شخصيتنا معيبة.

فباستطاعة صنّاع القرار البحث بطريقة مفيدة عن طرق لتقليل النزاعات الاجتماعية الحتمية التي أشار إليها نيبور - لا للعثور على الطوباوية بقدر إنقاذ أنفسنا من دمار أكبر. وعلى الرغم من العيوب المتأصلة فينا، يمكننا أن نأمل بصنع مستقبل أفضل. ونحن نعلم أن القيادة الصحيحة تستطيع فعل الكثير لتجنّب الحروب، وإعادة بناء المجتمعات المحطّمة وتوسيع الحرية ومساعدة الفقراء".

في "القوانين النفسية لتطوّر الشعوب"، الطبعة العربية عن دار الرافدين ببيروت وبغداد عام 2019، ينفذ غوستاف لوبون باقتصاد وهدوء في التعبير ليس إلى تأكيد استحالة المثالية في السياسة فحسب وإنما إلى مشاكسة مثالية المبادئ نفسها: "ليس لمذهب من المذاهب من الأهمية إلا بمقدار تأثيره في نفوس المتخلقين به. أما ما فيه من صواب أو خطأ فمسألة نظرية لا تهم إلا الحكماء. ومتى دخل مبدأ في أذهان العامة وجب الخضوع لنتائجه كلها صواباً كان المبدأ أو خطأً".

أما ميكافيللي في كتابه الشهير فينتصر للأمير ليس بالضرورة من خلال ما يمكن اعتباره محاولة رائدة للاجتراء على مفهوم الشرف في اللعبة السياسية وإنما أساساً من خلال جَعْل كل شيء مباحاً للأمير ليس من أجل الانتصار على خصومه فحسب وإنما للمحافظة على الحكم عبر وسائل لا يبدو أن ميكافللي أو أيّاً من أمرائه المخلصين في اتّباع أفكاره ينظر إليها بوصفها خيانة للشعب بأسره. ميكافللي وكثير من أمرائه "المطيعين" تحلّوا بجرأة إدخال تهمة الخيانة ليستوعبها إطار الذرائعية المبررة لإحكام القبضة على الشعوب لأطول مدى ممكن، بينما لا يزال (كل؟) الذين يرفعون شعار سياسة المبادئ الأخلاقية يمتثلون لوصايا ميكافيللي خفيةً ويزيدون على ذلك بالاختباء خلف مبادئ أخلاقية تترنح في ميدان السياسة وهي لا تزال تحاول فض الاشتباك بين الأخلاقي واللاأخلاقي، بين الشرف والخيانة، وربما في أحسن الأحوال بين الخيانة التي يمكن تمريرها بلا حرج كبير وبين الخيانة العظمى التي يجدون أنفسهم مرغمين على تمريرها أيضاً مهما يكن الحرج

الذي قد ينتابهم عند مواجهتهم بتعريفاتهم ومواقفهم إزاء مصطلحات السياسة ومبادئ الحياة المتناقضة.

الماكرون خلف الجماهير

نوايا أهل السياسة - من السلطة ومن المعارضة على السواء - ليست دوماً صادقة وشفافة عند تعبئة الجماهير، فالصدق والشفافية من جهة والسياسة من جهة أخرى يوشكان أن يكونا طرفَي نقيض في لعبة الحياة. وإذا كانت هناك أفضلية للمعارضة على السلطة في هذا المقام فهي أن دور المعارضة في لعبة السياسة أسهل لأن على المعارضة أن تترصّد أخطاء السلطة وربما تخترع بعضها وتبرزها للجماهير التي هي في الغالب حانقة على أية سلطة بدرجة أو أخرى، وسبب ضيق الجماهير من أية سلطة في بساطة أنّ كل إنسان يرى أنه يستحق أفضل مما ينال، فالناس عادة تتحسّر على ما فاتها من الغنيمة أكثر مما تقنع بما وقع في أيديها من الخير. هذا، وتنقم الجماهير على المعارضة عندما تحس بأن الأخيرة تواطأت مع السلطة لمصالح مستترة من أجل تمرير موقف لا يوافق عليه الشعب، والمعارضة - أية معارضة - تفعل ذلك ربما ببعض القلق ولكن بضمير مستريح في إطار ما تراه مشروعاً ضمن لعبة السياسة ذات القوانين فائقة المرونة.

في كتابه "الجماهير والسلطة"، الترجمة العربية عن المركز القومي للترجمة ومركز المحروسة للنشر بالقاهرة عام 2018، يقول إلياس كانتي: "إن الكتلة بدورها ما هي إلا ظاهرة مليئة بالأسرار لا تقل عما نعرفه عن الظواهر الكونية التي تحدث فجأة من دون توقع. فقد يتجمع نفرٌ قليل من الناس، خمسة أو عشرة أو اثنا عشر، ليس أكثر، ولم يكن هناك بعد شيءٌ معلَن ولا شيء متوقع، وفجأة يغص المكان بالناس ويتدفق إليهم آخرون من كل ناحية، كأن الطرق قد صارت باتجاه واحد. وكثير من هؤلاء لا يدرون بما حدث، ولا يملكون إجابة على من يسألهم، إلا أنهم يكونون في عجلة من

أمرهم حتى يصلوا هناك، حيث تكون الأغلبية. إنه قرار مصيري في حركتهم التي تختلف بحق عن التعبير عن أي فضول اعتادوا عليه في حياتهم. ويذهب البعض إلى القول بأن الحركة لأي منهم لا تتم إلا بمشاركة الآخرين، وهذا أمر لا يتم من جانب واحد، حيث إن أمامهم هدفاً، وهو هناك قبل أن يجدوا التعبير عنه، فالهدف هو البقعة الأكثر ازدحاماً - أي الموضع الذي يتجمع معظم الناس فيه".

يضمر كانتي خلف مصطلح "الكتلة" الكثير من المضامين الفلسفية والفكرية على الأرجح، وهو يقرّ ابتداءً بأنها ظاهرة مليئة بالأسرار. المقتطف السابق على كل حال يشير إلى أن الناس تميل إلى التجمع/التظاهر بتلقائية أكثر من المتخيَّل، والسلطة تدرك ذلك وتحسب له كل حساب ممكن وتتخذ كل التدابير الاحترازية المتاحة. يزداد الأمر تعقيداً لا ريب في البلدان الخاضعة لحكومات متسلطة، والتي تكون تبعاً لذلك أقلّ تقدّماً من الناحية المدنية بصفة عامة والاقتصادية والتكنولوجية والمعرفية بصفة خاصة على سبيل المثال، ففي تلك البلدان تكون الجماهير في حالة استعداد دائم للتجمّع العفوي بنوايا بريئة للحديث والتنفيس عن الضيق الاقتصادي والقهر السياسي، وهذه النوايا البريئة فرصة سانحة للمعارضة لاستغلال تلك النزعة - مادياً ومعنوياً - للتأليب على السلطة، وتملك المعارضة الصبر على المراوغة والانتظار سنوات طويلة من أجل اقتناص الفرصة الأنسب لاستغلال نزعة الجماهير للتدفق نحو الهدف ممثلاً في "البقعة الأكثر ازدحاماً"، والعمل من ثم على تعزيز تلك التلقائية بشحنات مكثفة من عمليات التخطيط المحكمة تطلّعاً إلى ما تراه هدفاً مشروعاً في لعبة السياسة في عالمنا الثالث الذي لا يزال أغلب (كل؟) أنظمة الحكم فيه قيد التشكّل على مستويات متراوحة من تواضع النضج السياسي والحضاري، وغنيٌّ عن القول سوى من باب التأكيد أن ذلك الهدف ليس سوى الإطاحة بالنظام القائم وتأسيس نظام جديد تُغدَق عبره الوعود للجماهير بجِنان الحق والخير والجمال.

لا مناص للجماهير من الاعتماد على كيانات تقف خلفها وتبلغ من الدهاء السياسي ما تبلغ، فالسلطة الطاغية أصلاً داهية، والأدهى من كل ذلك أنه حتى الفئات النقية من مكر اللعبة السياسية لا تلبث أن تجد أيديها ملطخة بشوائب السياسة عقب الانخراط في اللعبة بنقاء لم يكن محل شك، بل إن الجماهير ذاتها تجد أنفسها بعد حين بين خيارين أو أكثر ليس من بينها ما يمكن أن تقبل عليه بلا قدر من تأنيب ضمير كان - قبل الانخراط في تنفيذ الحلم بالتغيير - بالغ النقاء والطمأنينة إلى حساباته وتوقعاته المثالية.

في "سيكولوجية الجماهير"، الترجمة العربية عن دار الساقي عام 2016، يقول غوستاف لوبون: "في الواقع أن أسياد العالم ومؤسسي الأديان أو الإمبراطوريات ورسل كل العقائد ورجالات الدول العظام وعلى مستوى أقل زعماء الفئات البشرية الصغيرة، كلهم كانوا علماء نفس على غير وعي منهم. وكانوا يعرفون روح الجماهير بشكل فطري، وفي الغالب بشكل دقيق وموثوق جداً. وبما أنهم يعرفونها جيداً ويعرفون كيف يتعاملون معها فإنهم قد أصبحوا أسيادها. فنابليون بونابرت مثلاً كان ينفذ بشكل رائع إلى أعماق نفسية الجماهير الفرنسية، ولكنه كان يجهل بشكل كلي أحياناً نفسية الجماهير التي تنتمي إلى أجناس أو أعراق مختلفة. وهذا الجهل قاده إلى خوض الحروب في إسبانيا وروسيا خصوصاً، هذه الحروب التي أدت فيما بعد إلى سقوطه. إن معرفة نفسية الجماهير تشكل المصدر الأساسي لرجل الدولة الذي يريد ألا يُحكَم كلياً من قبلها، ولا أقول يحكمها لأن ذلك قد أصبح اليوم صعباً جداً".

وإذا كان "اليوم" (في العبارة الأخيرة: لأن ذلك قد أصبح اليوم صعباً جداً) يشير إلى أكثر من قرن مضى في أوروبا الغربية، فإننا لا نزال نعيش في منطقتنا زماناً يستطيع فيه رجل الدولة أن يحكمها وبسهولة عندما يتعلق الأمر بالمحافظة على كرسيه وتسجيل رقم قياسي على العرش. المهم أن المقتطف يشير بتعبير أكثر جاذبية إلى ما نعرض له في هذا المقام، فهو يصف القادة الذين يسيِّرون الجماهير بكونهم علماء النفس، وهو وصف

صحيح لكنه "قليل" في حق القادة، فعلماء النفس يدركون نفسية الجماهير لكنهم لا يستطيعون تسييرها كما يفعل القادة بتلقائية ومهارة.

يواصل لوبون: "إن نفسية الجماهير تبين لنا إلى أي مدى يكون تأثير القوانين والمؤسسات ضعيفاً على طبيعتها الغرائزية العنيفة. كما وتبين لنا إلى أي مدى تبدو عاجزة عن تشكيل أي رأي شخصي ما عدا الآراء التي لقنت لها أو أوحيت إليها من قبل الآخرين. ولا يمكن للقواعد المشتقة من العدالة النظرية الصرفة أن تقودها. وحدها الانطباعات التي يمكن توليدها في روحها يمكنها أن تجذبها".

الكلام أعلاه لا يشير إلى سذاجة الجماهير قدرَ ما يشير إلى طبيعتها الانفعالية، وهو من قبل إشارة بليغة إلى الماكرين الذين يقفون خلف الجماهير للإفادة من انفعالاتها التلقائية، كلٌّ على طريقته الخاصة ولحسابه الخاص.

الثورة المضادة

إذا كانت الثورة المضادة جريمة نكراء في عرف أنصار الثورة، فإنها حدث منطقي بالنظر إلى الواقع وإلى طباع البشر إزاء المواقف المتباينة في السياسة وفي الحياة عموماً. فليس من المنطق أن تستسلم فئة تصل التُّهَم المُزمَع توجيهُها إليها حدودَ الخيانة العظمى فتكتفي بانتظار توجيه الاتهام للدفاع عن نفسها وفي مقدورها أن تقلب الطاولة على من يزمعون إدانتها وتدخلهم أقفاص الاتهام وترجع كما كانت آمرة ناهية بأيديها السلطة وحواليها هالات الكبرياء.

سيكون إذن انتصاراً غير مستحق إذا أغفل المخططون للثورة إمكانية وأخطار الثورة المضادة، بل الأرجح أن انتصار الثورة لن يتحقق كاملاً إذا اكتفى الثوّار - من مختلف مواقعهم الثورية - بإدانة الثورة المضادة وكيل اتهامات التخوين لأنصارها. ولأن أظهر أنصار الثورة المضادة هم في الغالب ثوّار الأمس الذين أتوا بالسلطة أو معها عبر ثورة من قبيل ما، فإنهم لن يكونوا هدفاً يسير المنال لخصومهم من ثوّار اليوم.

تصبح معركة الثوّار أكثر تعقيداً في مواجهة الثورة المضادة بتذكّر أن الأخيرة كما هو معروف تسيطر خلال اشتعال الثورة، وحتى بُعيد نجاحها في الإطاحة برؤوس النظام، على الموارد المؤسسية للدولة بمختلف أشكالها. غير أن هناك عاملين ناجعين إلى جانب الثورة في وجه الثورة المضادة: الأول تمثله الجماهير التي ثارت على نظام أهملها (في أحسن أحوال الإجحاف) فرأت أنه لا يمتّ لها بصلة نافعة فضلاً عن الأضرار الماحقة التي لحقت بها جراء تسلُّطه (وهي الحال الغالبة التي تشعل الثورات في العادة).

أما العامل الثاني فلا يقلّ خطورة في الأثر عن سابقه، بل هو أشدّ فتكاً، فالحانقون على النظام من داخله (ممثلين فيمن كانت لهم أطماع أكبر في السلطة تمّ تجاهلها أو إخمادها) يشكلون الضربة القاضية التي من شأنها أن تعجِّل بسقوط النظام مستفيدة من زخْم الثورة في صنيع تراه مستحقاً، ولا يمحضه الجانبان المتصارعان في حلبة الفعل الثوري أي تقدير بطبيعة الحال، فالنظام ينظر إلى صنيعهم بوصفه خيانة كاملة الدسم، والثوّار يقيّمونه على أنه انتهازية ولا يباركونه إلا بما يخدم أهداف الثورة بوضوح، ولا وضوح هنا أبرز من الإطاحة بالنظام الحاكم، ليستمر الخلاف بعد نجاح الثورة في الإطاحة برموز النظام بصورة أقل دراماتيكية ولكن أشد احتقاناً وتعقيداً في الغالب.

في كتابه "الصراعات" Conflicts، الترجمة العربية صادرة عن المجمع الثقافي بأبوظبي سنة 1997، يقول المفكر المالطي إدوارد دي بونو: "تنشأ الصراعات لأن على الناس أن يتفاعلوا مع الموقف ذاته، لكنهم يرون الموقف باختلاف كبير". ووفق ما أسماه الرجل في كتابه "التفكير العملي" Practical Thinking بقانون دي بونو الأول فإن "كل واحد على صواب دائماً. لا أحد على صواب أبداً". يشرح دي بونو مراده بقانونه الأول هذا كما يلي: "يعني هذا أن الشخص يكون على صواب من إدراكه الخاص ولكن بلغة إدراك أكبر وأوسع، فالأمر ليس كذلك. وفي لغة الإدراك المطلق لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. هناك عدة أسباب لأن يرى الناسُ المواقفَ باختلاف".

يشرع بعدها دي بونو في بيان الأسباب التي من شأنها أن تحفز البشر إلى رؤية المواقف باختلاف: المزاج، المحيط، نظرة محدودة، المنطق المحلي، فقاعات المنطق، اختلاف المجالات، المعرفة، جزء من الصورة، الخبرة، التنبّؤ، الإدراك.

برغم كونها نظرة علمية لمفكر وأكاديمي لا ينطلق من سياق سياسي بعينه، فإن الأسباب أعلاه تسرّ لا ريب النظام الحاكم وأيضاً أرباب الثورة المضادة، لكنها على الأرجح لن تكون جاذبة للثوّار على أي صعيد، فإتاحة

الأعذار للمساس بقدسية الثورة (حتى إذا كان ذلك من منطلق علمي صرف) أمر من شأنه أن يؤثر على مسار الثورة الذي يجب في عرف الثوار أن يكون صارماً وسريعاً نحو التغيير الكامل، وهذا حق الثوار لا ريب، غير أن إغفال الأسباب المنطقية لدوافع الخصوم النفسية والعملية من شأنه أن يضرّ بالثورة أكثر ممّا يمكن أن ينفعها.

يحتاج الثوّار إذن، أكثر من السلطة وأنصار الثورة المضادة المتوقعة، إلى المهارة بقدر حاجتهم إلى الحميّة الثورية المتدفقة بشكل تلقائي. والمهارة لازمة لقادة الحراك الثوري تحديداً وليست للجماهير الثائرة ابتداءً، إذ يصعب (يستحيل؟) أن يجمع الله في جوف ثائر قلبين أحدهما ملتهب ضد النظام الذي قهره والآخر تغمره السكينة بما يكفي لإتاحة الفرصة للتحرك برصانة ومهارة أمام مراوغات الخصوم. وعليه فإن مهارة اللعبة السياسية تقع في قلب المشهد الثوري بالنسبة لقادة الثورة وتزداد تعقيداً بعد نجاح الثورة في الإطاحة بالنظام أو بأشهر رموزه على الأقل.

أكثر من بقايا النظام السابق ومن المنقلبين مع التيار الجديد، فإن أخطر خصوم القادة الثوريين عقب بداية نجاحات الثورة هم القادة الثوريون أنفسهم، فحكمتهم في هذه المرحلة يجب أن تكون مضاعفة لمعالجة أطماعهم الشخصية (المشروعة؟) في السلطة، فكلٌّ يرى أن تضحياته كانت الأهم لإنجاح الثورة. وهكذا يكون "التدمير الذاتي" أشهر أسلحة الثورة المضادة التي لا تكلّفها سوى مجهود التأجيج بإثارة الفتنة بين حلفاء الأمس الذين سينقلبون - بطبيعة التحوّل الثوري وشكل الحكم الجديد - إلى خصوم ألدّاء في اللعبة السياسية القادمة، بل المشهد السياسي الراهن قيد الإعداد.

رغم أنها قابعة في تفاصيل الجدال حول رؤية الشكل السياسي لمستقبل الوطن، فإن أيّاً من أسباب دي بونو التي تتجاوز العشرة حول رؤية المواقف باختلاف لا ينطبق على ما دعا إلى قيام الثورة. دي بونو يعرض في ذلك السياق إلى الدوافع "البريئة" التي ينشأ الصراع بسببها: المحيط، نظرة محدودة، المنطق المحلي، فقاعات المنطق، اختلاف المجالات، المعرفة، جزء من الصورة، الخبرة، التنبّؤ، الإدراك. أما في مقام الثورة، فإن أسباب

الصراع تكون من قبيل "تضارب المصالح" في صورته العظمى ممثلة في الانفراد بالسلطة من جانب والتهميش إلى حد الإقصاء الذي يتعرض له الجانب المقابل. عند هذا الحدّ من "انعدام البراءة" في دوافع الصراع يصبح "الانتقام" مسيطراً على كل جانب، وعندما تهدأ سَوْرة الانتقام تعود المطامع الذاتية لتسيطر على مشاهد اقتسام السلطة، بحيث لا يعود لأسباب دي بونو البريئة في تفسير أسباب الخلاف محل يُذكَر سوى بين الأبرياء من الجماهير الثائرة والمستكينة على حد سواء.

لا مرجعية تسلم من الهوى

في "الكل يكذب"، EVERYBODY LIES لسيث ستيفنز - دافيدوتس SETH STEPHENS - DAVIDOWZ، الترجمة العربية صادرة عن الدار العربية للعلوم ببيروت في نوفمبر 2018، يرِد في المقدمة تحت عنوان "معالم التغيير" ما يلي: "وكثيراً ما يكذب الناس سواء على أنفسهم أم على الآخرين، ففي عام 2008 ذكر الأمريكيون في استطلاعات الرأي العام إنهم لا يكترثون بتاتاً بمسألة العرق، وبعد مضيّ ثماني سنوات، انتخبوا الرئيس دونالد ترامب، الرجل الذي أعاد تغريدة احتوت على ادّعاء باطل بأن السود مسؤولون عن أغلب جرائم قتل البيض، كما أنه خلال إحدى مسيراته ساند مؤيديه الذين تهجموا على متظاهري حركة "حياة السود مهمة"، وتردد في رفض دعم الزعيم السابق لمنظمة كو كلوكس كلان، لتصبح تلك العنصرية الخفيّة التي أضرّت باراك أوباما هي ذاتها التي ساندت دونالد ترامب".

"الكل يكذب" كتاب عن "البيانات الضخمة والبيانات الحديثة وقدرة الإنترنت على اكتشاف الخفايا"، وهو بالغ الدلالة على أن الحكم المطلق على الأشياء مستحيل، ليس بسبب اختلاف ميول الناس ومرجعيّاتهم فحسب، وليس فقط كذلك بسبب أن الناس لا تقول الحقيقة في استطلاعات الرأي، فالأمر بالإبحار في تفاصيل الدراسة المعمقة عن البيانات التي شملها الكتاب يبدو معقداً فوق ما نتصوّر، فالبيانات دوماً مضلّلة إذا خضعت لامتحان الحق والخير والجمال، وهي شديدة المراوغة إذا أخضعناها لاختبار الحقيقة بصفة عامة، وإن يكن الأشد إدهاشاً فيما يفصح عنه الكتاب أنه حتى بيانات قوقل المستخلصة من عمليات البحث كثيراً ما

تبدو مخالفة أو حتى مناقضة لتصوّراتنا عن الرأي العام - الذي قد يكون مستخلصاً عن قوقل أيضاً - بخصوص هذه القضية وتلك.

الغرق في بحور البيانات مسألة شاقة لكنها في غاية الأهمية فيما يتعلّق بقياس الرأي العام. الأكثر أهمية أن الرأي العام الذي يتم قياسه من البيانات المستخلصة يُعاد توجيهه لتشكيل رأي عام جديد بدرجة أو أخرى، وبهذا تبدو البيانات في تقديري وسيلة لتشكيل "الحقائق القادمة" أكثر من كونها أداة لمعرفة حقيقة ما يرغب الناس فيه.

والناس كما هو معلوم تغير أهواءها، لكن الجدير بألاّ نهرب من مواجهته هو أننا كثيراً ما نغيّر مواقفنا المبدئية، وذلك ليس عيباً في كل الأحوال، بل إن المشكلة كثيراً ما تكون في الإصرار على التشبّث بموقف مبدئي تَبيّن لنا خطؤه - بالانتباه إلى استحالة الوقوع على الصواب المطلق - أو تبيّن أنه لم يعد يتماشى مع ما أضافته الحياة إلى رصيدنا من المعرفة والتجارب.

الكل يكذب - بعيداً عن الكتاب القيّم الذي يغوص في بحور البيانات الحديثة بعمق ومهارة وطرافة - لأن للحقيقة أكثر من وجه على غير ما نتهيّب الاعتراف به، فضلاً عن الهوى الأكثر عرضة للتغيّر والانقلاب، والمفارقة أننا على ما يبدو نكذب فيما يخص أهواءنا مثلما نكذب في ما يخص مبادئنا... وربما أكثر.

في ضوء ما سبق، وبتأكيد تباين المواقف حوله رفضاً وموافقة بطبيعة الحال، سيكون من المستحيل أن نصدّق أن أيّاً من المرجعيات الثورية خالصة لوجه الثورة ما دامت الثورة نفسها تتشعب إلى العديد من الدوافع والغايات بتعدّد مرجعيّات الحاضّين عليها والمشاركين فيها وباختلاف أهوائهم، وذلك بتجاوز الهدف المجمع عليه ممثلاً في الإطاحة بالنظام القائم.

ليس من الضروري إذن أن يُقْسِم أيٌّ من المشاركين في الثورة على نقاء دوافعه تجاهها، لأنه ليس من الحكمة ابتداءً سحب الفعل الثوري إلى محاكم تفتيش القلوب، فالقلوب من الصعب ضبطها متلبسة بهوى ثابت لا

تحيد عنه، فضلاً عن استحالة الاتفاق على الهوى "الأفضل" الجدير بالاستحواذ على القلوب كلها. أما العقول فهي أكثر براعة في المناورة أمام محاكم تفتيشها بحيث يصعب الإمساك بها متورطة في الانحياز ضد موقف مبدئي بعينه، وذلك مجدداً بالانتباه إلى مشقة الاتفاق على قدر معتبر من المواقف المبدئية غير القابلة للخلاف في اللعبة السياسية التي تقع الثورة - مهما يكن طهر الثوار المخلصين - في قلبها.

خلال الثورة - تماماً كما في سائر مواقف السياسة والحياة - تكون الغلبة للأصلح، والأصلح الذي تكون له الغلبة ليس "الأقوى" فحسب وإنما الأكثر مهارة في استخدام عناصر قوته.

لا مفرّ من الإقرار بسطوة "المرجعية الثورية"، ليس بسبب صلاحها أو صلاحيتها المطلقة بل لسحرها العاطفي الطاغي. ولا نقول إن المرجعية الثورية لا تسلم من الهوى فحسب بل إنها تقوم عليه، وهو هوى في عمومه نقيّ لكنه لا يسلم من الاستغلال من قبل كثيرين.

في كل الأحوال يجب العمل على إحلال المرجعية الدستورية للنظام الجديد محلّ المرجعية الثورية، والمرجعية الدستورية ليست مبرّأة من الخطأ وأهواء المشرعين والمفسرين والمنفذين لكنها لا تقوم على الانفعال كالمرجعية الثورية بحسب طبيعة اللحظة الثورية العارمة التي تنفجر فتلفظ عقوداً من الكبت العظيم بكثير من الاستحقاق وشيء من التجاوز غير المستغرَب تجاه شهوة الثأر وغريزة الانتقام، مضافاً إليهما الانفلات العام من قبضة قوانين النظام حتى الشق المتعلق منها بحفظ الأمن العام وليس أمن النظام الذي تمّت الثورة عليه تحديداً.

الهوى حقيقة لكن الاستسلام له نقيصة، خاصة عند التعامل مع أفكار كبيرة تتعلق ببناء دولة وكيان في عظمة وطن، وحتى لا نستسلم للهوى يجب أن يستبد بنا الدافع العملي على حساب النظرة العاطفية، سواء أكانت تلك النظرة تتعلق بمواقفنا تجاه الآخرين أو بحلمنا ببناء دولة مجيدة.

ليس من السهل التنبّؤ بالثورة

بالعودة إلى كتاب "الكل يكذب" EVERYBODY LIES نقف مع المؤلف سيث ستيفنز - دافيدوتس عند إشارته إلى أنه: "في مطلع الانتخابات التمهيدية، ادّعى نيت سيلفر أمام الملأ بعدم توفر أي فرصة لفوز ترامب، وكلما تقدّم سير الانتخابات التمهيدية، كانت الصورة تغدو أوضح. حيث حظي ترامب بتأييد واسع. عندها قرر سيلفر أن يمعن النظر في البيانات لفهم ما يجري، والإجابة عن: كيف تمكّن ترامب من المضيّ قُدُماً؟. لقد لا حظ سيلفر أن المناطق التي قدّم فيها ترامب أفضل ما لديه تشكل بذاتها خريطة غريبة، حيث تميّز أداء ترامب في الولايات الشرقية الشمالية والمناطق الصناعية من ولايات الغرب الأوسط الأمريكية، إضافة إلى الولايات الجنوبية، بينما انخفض أداؤه كثيراً في الولايات الغربية، واتجه سيلفر للبحث عن المتغيرات محاولاً فهم هذه الخريطة، أكانت هي البطالة؟ أم هو الدين؟ أم أن السبب هو اقتناء الأسلحة؟ أم هي معدلات الهجرة؟ أم هي معارضة لأوباما؟".

ماذا كانت النتيجة؟، يواصل سيث: "وجد سيلفر أن العامل الوحيد الذي ارتبط بدعم دونالد ترامب في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري هو القياس الذي اكتشفتُه منذ أربع سنوات، فقد اكتشف أن المناطق التي دعمت ترامب بأعداد هائلة هي تلك المناطق التي كان أكثر البحث فيها عن كلمة "زنجي"".

نيت سيلفر إحصائي أمريكي معروف اشتهر بتحليله لمجالين مما يقع على رأس قائمة اهتمامات الأمريكان: لعبة البيسبول والانتخابات (الرئاسية). لكن كما نرى في المقتطف السابق لم يفلح الإحصائي المرموق في التكهّن

ابتداءً بحظوظ ترامب في الفوز برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وعندما قرّر الرجل تدارك سُمْعتِه لم يفعل أكثر من أنْ أخذ في حسبانه بيانات كانت موجودة أصلاً، أو لعله أعاد - من وجهة نظر مختلفة - قراءة البيانات التي اطّلع على بعضها من قبل.

أما سيث ستيفنز، مؤلف الكتاب الذي أخذنا عنه المقتطف، فهو عالم بيانات أمريكي معروف أيضاً. يشير سيث ستيفنز في سياق حديثه إلى أنه سبق بأربعة أعوام إلى اكتشاف ما توصّل إليه نيت سيلفر في ضوء تحليله للبيانات بخصوص العامل الوحيد المرتبط بدعم ترامب في الانتخابات التمهيدية (البحث عن الكلمة "زنجي" في مناطق بعينها). غير أن كتاب "الكل يكذب" لا يدّعي في مجمله ضمان الحصول على تكهّنات مطلقة الصحة في أي مجال باستخدام البيانات الضخمة الحديثة من خلال الإنترنت، قدرَ ما يؤكد الأهمية العظمى لتلك البيانات التي تحتاج بدورها إلى براعة في التعامل معهما، وربما كان الأكثر أهمية هو براعة استخلاص ما يستحق التعامل معه من أطنان المعلومات على شبكات محركات البحث المكتظة بالغث والسمين.

بالارتداد الحادّ إلى موضوع أكثر خشونة عبر كتاب "لماذا تتحارب الأمم" Why Nations Fight لريتشارد نيد ليبو Richard Ned Lebow، الترجمة العربية ضمن سلسلة "عالم المعرفة" عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت أغسطس 2013، وفي الفصل الثاني من الكتاب بعنوان "نظريات الحرب" يقول المؤلف: "وضع كينيث والتز Waltz نظرية للعلاقات الدولية توضع بأكملها على مستوى النظام. وباتباع (جون) هيرتز (Herz)، جادل بأن فوضى النظام الدولي تولد انعدام الأمن، مما يدفع الدول إلى تسليح أنفسها والاستعداد للحرب. إن التقدير الخاطئ miscalculation هو السبب الأكثر أهمية للحرب، والذي ينشأ عموماً عن نقص المعلومات".

لكن، وكما أشرنا لتوّنا في أضواء التعليق على كتاب "الكل يكذب"، فإن وفرة المعلومات قد تشكّل بدروها فخاخاً لمزيد من التقديرات الخاطئة

miscalculations. يواصل ريشارد نيد ليبو: "من جانبه، يصرّ والتز... على أن العالم أصبح ثنائي القطب أواخر أربعينيات القرن العشرين. وفي العام 1990، جادل والتز وميرزهايمر Mearsheimer بأن ثنائية القطب تقترب من نهايتها، أو أنها اختفت بالفعل، مفسحة الطريق لتعدد الأقطاب. وبحلول العام 1993 ناقض والتز نفسه وأصرّ على أن العالم ظل ثنائي القطب رغم انهيار الاتحاد السوفيتي".

وعن فرضية والتز حول احتمالية الحرب يقول ليبو: "ولا يمكن التحقق من فرضية والتز حول احتمالية الحرب في ظل الأنظمة المختلفة إلا من خلال إجراء مقارنات بين عدد كبير من الأنظمة. حتى وفقاً لأكثر قواعد العد سخاءً، لم ينتج التاريخ المسجل سوى عدد قليل من الأنظمة الهرمية والثنائية القطب. وليس من الواضح ما هي قيمة افتراض والتز هذا، حتى لو كان بوسعنا اختباره وتأكيد صحته، إذ لا تخبرنا المعدلات الإحصائية الأساسية بأي شيء على الإطلاق عن الحالات الفردية".

يواصل ليبو في السياق ذاته، ولكن هذه المرة عن رؤية جون ميرزهايمر لسياسات القوى العظمى: "تتمثل أبرز جهود جعل الواقعية الجديدة وثيقة الصلة بالسياسة الخارجية في كتاب جون ميرزهايمر المعنون "مأساة سياسات القوى العظمى"، الذي يضع فيه نظرية استنتاجية deductive مبنية على مبادئ الواقعية الجديدة، ويستخدمها لطرح سلسلة من التكهنات حول المستقبل القريب. يؤكد ميرزهايمر أن القوى العظمى لديها هدفان استراتيجيان: امتلاك أقصى قدر ممكن من القوة والحيلولة دون هيمنة القوى الأخرى. ويجادل بأن القوى العظمى كانت دائماً على استعداد لخوض الحروب لتحقيق أي من الهدفين".

نواصل مع ريشارد نيد ليبو وصولاً إلى الأهم في سياقنا هذا: "بيد أن جميع توقعات ميرزهايمر حول عالم ما بعد الحرب الباردة كانت خاطئة، فلم تنسحب الولايات المتحدة من أوروبا، ولم ترفض إلزام قواتها بحفظ السلام الإقليمي، ولم تحاول تقليص النمو الاقتصادي الصيني أو تطبق استراتيجية الردع الإقليمي offshore balancer. لم تمتلك اليابان ولا ألمانيا أسلحة

نووية، وليست هناك مؤشرات على أن العلاقات بين القوى العظمى قد أصبحت أكثر توتراً، فضلاً عن احتمال نشوب حرب بينها، وقد ظلت منظمة حلف شمال الأطلسي قائمة رغم انتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفيتي، ولم يكن هناك توازن "صلب" أو "رخو" ضد الولايات المتحدة، باعتبارها القوة المهيمنة الوحيدة الباقية".

حسناً، ما سبق كان عن التعامل مع البيانات الحديثة على الإنترنت لمعرفة نتائج مباريات البيسبول والانتخابات الرئاسية في أمريكا كما رأينا مع نيت سيلفر وسيث ستيفنز، وعن احتمالات نشوب الحرب كما عرض لنظرياتها ريتشارد نيد ليبو مع مفكرين مثل جون هيرتز وكينيث والتز وجون ميرزهايمر، فماذا عن التنبؤ بنشوب الثورة في أيٍ من دول العالم الثالث سواء في ضوء البيانات الحديثة الضخمة أو بقراءة واقع نعيشه؟

من الواضح أن الأمر لا يختلف كثيراً، فالحديث عمّا سيقع غداً بخصوص أية مسألة، مهما تكن جسامتها ومهما يكن حجم البيانات المتوفرة حولها، لا يعدو أن يكون نبوءة يمكن إيجاز نتيجتها في قانون عام عريض ينص على أنها مناصفة في نسبة التحقق بين الخيارين "نعم" و"لا".

عندما لم ينجح "الربيع العربـي" قبل قرابة العشرة سنوات في إشعال الثورة في السودان، برّر بعض المعارضين إبطاءَ الثورة السودانية بقبضة النظام الطاغية، فردّ بعضُ أنصار النظام متهكِّماً بأن الثورة لم تقع على أية حال فهل يُلام النظام على أنه لم يعمل على تأجيجها بما يكفي لإثبات ديموقراطيته؟

"مصر ليست كتونس"، "ليبيا ليست مثل مصر"، "سوريا لا تشبه ليبيا أو مصر"، "السودان ليس مثل سوريا"، وغيرها من العبارات المماثلة قالها زعماء عرب وأنصارهم حينما اشتعلت الثورة في بلدانهم فأخطأ البعض وأصاب الآخر. ذلك عن التكهّن بمآلات الثورة، أما عن التنبّؤ بتوقيت اشتعالها ابتداءً فلا أبلغَ من مثال الحالة السودانية، فلو ألقي السؤال التالي خلال ثورات "الربيع العربـي" على الناس: هل ستقع الثورة في السودان الآن أم بعد ثمانية أعوام جرّاء ارتفاع أسعار الخبز؟ لم تكن "الآن" هي ما سيستحوذ

حينها على إجابات الناس وإنما الاستنكار من طرح سؤال إجابته بديهية وخياره الثاني يشبه المستحيل.

الثورة تحتمل الفرحة

رغم ولعي بالإحالة إلى المراجع على اختلافها، تعقيباً بالموافقة أو المخالفة أو القياس مجرّداً، لا أرى الآن مرجعاً مغرياً بالاستدعاء في ضياء الحالة الفريدة لمآلات الثورة وإنجازنا السوداني الفريد، وذلك بالنسبة لي على المستوى الشخصي من أظهر دلالات فرادة ما تحقق.

احتفال التوقيع على اتفاق المرحلة الانتقالية بذاته إنجاز فريد بصرف البصر عمّا يمكن أن يتلوه من سيناريوهات، ونسأل الله أن يكون التالي خيراً وبركة. الاحتفال انتصار للثورة التي أدّى أمانتها مَن قُتِل ومن أسِر ومن ذاق أيّاً من أشكال التنكيل وألوانه من الفتيات والفتيان والشباب والكهول والشيوخ السودانيين، وكذلك مَن كان في وسعه أن يبطش فكفّ يده قادراً وصعّب بذلك المهمةَ على الذين أرادوا إجهاض الثورة في بواكير نموّها في رحم الأرض التائقة بدورها إلى تشكّل جديد، وعقّد المهمة كذلك على الذين تمادوا في غلظتهم فلم ييأسوا وطمعوا في وأد الثورة وهي وليدة في مهدٍ باركه حتى المرتابون.

احتفال الثورة يومَ التوقيع انتصارٌ استحق أن يذوق حلاوته الوسطاءُ ثمرةً لصبرهم الجميل الذي كان بدوره انعكاساً لنوايا أكثر جمالاً، فبدون النية الخالصة لا تغدو الوساطة سوى شراكة ماكرة في اللعبة السياسية التي تحتمل السمين والغث، وما أكثر الأخير في تلك اللعبة.

الإنجاز بطلُه الرئيس الثوّارُ لا ريب، لكنّ مشاهد البطولة الثورية تقاسمها السودانيون بإيثارهم المشهود حبّاً وكرامة واستحقاقاً. وبرغم الظهور الاستثنائي للمرأة السودانية والشباب السوداني، فإن ملحمتنا

الثورية من مفاصل تاريخنا البديعة التي شاركت في صنعها طوائف الشعب جميعها، كلٌّ بما جاد به وُسعُه من العتاد على اختلاف أشكاله وألوانه، والأهم بالعاطفة النبيلة التي وسِعت بدورها أضعفَ الإيمان جنباً إلى جنب أصدقه وأمضاه أثراً ممّا تفجّر بالملهم البديع قولاً وفعلاً.

ليس من الحكمة أن نخال انتماءاتنا ومذاهبنا المتباينة وخلافاتنا العميقة قد تلاشت إلى الأبد بين ضحى الإعداد للاتفاق وعشية التوقيع عليه، لكن كل ذلك قد انتحى جانباً قصياً، بل توارى توارياً جميلاً في لحظاتٍ صَنَعَ الرضا والفرحَ خلالها مناصفةً جمالُ التواري لكل ما هو قبيح وألقُ الظهور لكل ما هو جميل في آن معاً.

هذه كما يعرف السودانيون ضربة البداية لعهد جديد انتظروه طويلاً بصبر بديع، وهم اليوم يتطلّعون إلى القادم من أيامه بشغف رزين. وهي ضربة سديدة وسارّة مهما يكن ما بعدها، ونسأل الله مجدداً أن يكون ما بعدها نجاحاً متواصلاً في اجتياز العراقيل. هي ضربة من بعض عبقريّاتها أنها كانت من القوة والحكمة بحيث جبّت ما قبلها من الخلاف تماماً لحظاتِ الاحتفال، والتحدّي الذي يواجهها هو أن تكون ملهمة لتجاوُز الخلاف القادم - لا محالة - استلهاماً لعبقرية انطلاقتها.

الاحتفال في الحياة، على أيٍّ من صُعدها، مناسبة لا تعني أن ما قبلها من الحزن والألم قد انقطع إلى غير رجعة، ولا تَعِد بأن القادم جنّة الوعود المتحققة، وإنما هي بمثابة الوقت المستقطع للفرح، هدنة يلتقط الجميع خلالها أنفاسه وينعش رئتيه مكافأةً على العمل الشاق فيما مضى من الأيام وتهيّؤاً لمزيد من الكفاح والإنتاج مستقبلاً. أما افتراض أن الأمور ستسير غداً على أجمل ما نحلم به لمجرد أننا التقطنا أنفاسنا وسعدنا باستراحة بديعة مستحقة فهو تجاوز لدرس جوهري في الحياة من الواجب أن يَعِيَه كافة المشاركين في احتفال الثورة، وكلنا مشاركون.

نحتاج العزيمة، لكننا قبلها أشدّ حاجة للتحلّي بالمرونة تجاه المماطلات التي قد تُنسج وبالمهارة إزاء المكائد التي يمكن أن تُحاك، وستُنسج المماطلات وستحاك المكائد لا محالة، تلك طبيعةُ حياةٍ وسنّةُ وجود. فمصالح

الخصوم متعارضة، بل إن رؤى الحلفاء أنفسهم لمصالحهم متباينة، ولا يُعقل والحال كتلك أن نستنكر العراقيل يحملها غدٌ ليس من ذنبه ولا ذنبنا أنْ حلمنا بأن يكون أفضل، لكنه ذنبنا إذا استبدّت بنا سطوة الحلم وألقت على أبصارنا غشاوة فغطّت الواقع الزاخر بتحديات من طراز ثقيل.

الثورة تحتمل الفرحة، بل تلك هدية عظيمة من الخالق، أنْ تدهمنا الفرحة في غمار الثورة، فالثورة لا تزال قائمة، وإن يكن من الحصافة أن تستمر بالحكمة والحيلة والرويّة والعزيمة لا أن تتصاعد بالانفعال القابل للاحتواء ببساطة - ومن ثمّ افتعال الهجمات المضادة - من قِبل المتربصين المتواجدين بضرورة سنة الوجود المشار إليها منذ قليل.

ومن الحكمة كذلك أن لا يُرمى كلُّ صاحب رأي مختلف بتهمة المؤامرة، فالمتآمرون كُثر، ولكنّ اختلاف الرأي - حتى إذا أفسد للودّ بعض قضاياه - لا يكفي بذاته لأن يكون مسوّغاً للاتهام بالتآمر، فاتهامات المؤامرة من ردّات الفعل التي لا يجيد أقلاّءُ الحيلة أفضلَ منها، في حين يقف الواثقون راسخين مطمئنين إلى بصيرتهم وحكمتهم في إدارة المعركة وانتصارهم على المدى العميق حتى أمام المتآمرين حقيقةً لا ظنّاً.

الثورة تحتمل الفرحة للحظات، فهي أولى بأن تستوعب على مدى اشتعالها اليقظة والعزيمة وفيوض الحكمة وتجليات الحنكة. ولا خير لثورة مثل أن يخمد لهيبها لصالح الشروع في بناء الدولة، وهذا بدوره حلم بديع ليس من الحنكة التلهّف على التعجّل فيه ولا من الحكمة افتعال الإبطاء عنه.

تأتي الفرحة أحياناً على غير انتظار فتكون منعشة، لكنّ فرح احتفال التوقيع على اتفاق المرحلة الانتقالية ظل مرتقباً طويلاً وجاء مستحقاً لذيذاً.

الثورة والعاطفة

هل من المنطق أن يُطلب من الثوّار أن يتعقّلوا في غمرة اشتعال الثورة؟. تصعب الإجابة بنعم، ولكن تنحية التعقّل تماماً مسألة غير منطقية بدورها، وهي أصلاً لا يمكن أن تحدث مع ثورة تحاك ضد نظام قائم واسع الحيلة والخبرة على مختلف صعد الحياة في البلد الذي أمسك بزمامه لعقود. وقد رأينا في "الماكرون خلف الجماهير" أن المنفعلين الخالصين هم الجماهير وحدهم، بينما قادة الحراك الثوري يديرون المعركة الثورية بالحيلة الواسعة، التي هي حقهم بطبيعة الحال، ويعرفون القدْرَ والنمطَ الواجب إظهارُه من عاطفتهم أمام الجماهير التي تستجيب لهم في انفعال صادق مهما تكن دوافع أولئك الذين يديرون المعركة الثورية ونصيبهم من المكر السياسي، ولا نقول المصلحة الشخصية أو الحزبية بالضرورة.

في كتاب "لا إكراه في الثورة" رأينا في أكثر من مقام أن الثورة إجمالاً أقلّ ارتباطاً بالتعقّل، "فالتعقل والقناعة يستوجبان التفكير وفي الثورة لا مجال للتفكير: إمّا معنا أو علينا، تنطبق هذه الحالة من الغوغائية الفكرية على الفريقين: الثائر ومن قامت الثورة عليه". ولا أزال أبحث عن تعبير أكثر لطفاً من "الغوغائية الفكرية" عندما يكون الموقف المبدئي خاضعاً لسؤال من طراز إرهابـي مثل: "إمّا أن تكون معنا وإمّا أن نحسبك علينا"، هذا فضلاً عن الإرهاب العاطفي المضاعف في ثنايا ذلك الإرهاب الفكري المقدّم في صيغة سؤال مبدئي لا يحتمل إجابة ثالثة وراء الخيارين: معكم أو عليكم.

وكنّا في "لا إكراه في الثورة" قد "ناوشنا الثورة مفهوماً وتطبيقاً بما يكفي ثم لا يلبث أن يغري بالمزيد، ولم يكن ذاك سوى لتحرير أي فعل إنساني من وهم القداسة خاصة إذا قدّم ذلك الفعل نفسه بوصفه مخلِّصاً من الظلم والفساد ومبشِّراً بالعدل والنزاهة حتى إذا كان الأخيران نيةً خالصة في صدور ثوّار بعضُهم من البراءة بمكان لم تختبره بعدُ تجارب الحكم ومزالق السياسة من موضع الحكومة لا المعارضة التي أغرتها سهولة التذمُّر بـ (توهّم) سهولة إدارة شؤون البلاد والناس".

أشرنا كذلك في "لا إكراه في الثورة" إلى أن "غياب التعقل في الفعل الثوري لا ينفي بالضرورة غياب القناعة، فالأخيرة على الأغلب ليست غائبة عن المشهد الثوري، بل وافرة الحضور في كثير من الأحيان، ولكنها قناعة انفعال لا قناعة تفكير، أو هي في أحسن الفروض قناعة بالقدر الأدنى من التفكير. وذلك لا يقدح في قيمة الفعل الثوري إلا إذا زعم الثوار لأنفسهم فوق طهر الدوافع قيمةً مضافة من المنزلة الفكرية أو "العقلانية الثورية"، والتعبير الأخير مما يصلح لأن يكون مثالاً نموذجياً للمصطلح المتناقض المفخَّخ القابل للتدمير الذاتي فور إلقائه على موائد الجدال الفكري إلا ما كان منها معلّقاً بمرجعية المنطق الثوري لا غير".

وإذا كان من المهم الانتباه إلى أن العاطفة في الثورة ليست مباحة فقط وإنما هي ضرورة لا تقوم ثورة بدونها، فإن تلك العاطفة لا يجب أن تستمر بذات الاندفاع عقب الإطاحة بشجرة النظام حتى إذا كانت جذور تلك الشجرة لا تزال راسخة في مؤسسات الدولة الرسمية منها والشعبية، فمرحلة البحث عن الجذور تتطلب كثيراً من الحكمة ليس من أجل اقتلاعها جميعاً بالضرورة وإنما ابتداءً للتعامل معها بالمتاح من أدوات الإصلاح التي هي أكثر عدداً وتعقيداً من مجرّد منجل حادّ لا يجيد سوى البتر.

في تقديمه لكتاب غوستاف لوبون "سيكولوجية الجماهير" الذي ترجمه وصدر عن دار الساقي في 2016، وتحت عنوان "مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي وفكر غوستاف لوبون" يقول هاشم صالح: "معظم علماء الاجتماع والنفس في فرنسا يأنفون من ذكر اسمه (غوستاف لوبون) أو

الاستشهاد علناً بكتبه وآرائه. في الواقع ينبغي ربط ذلك بالمنبت الاجتماعي والطبقي للرجل. فهو ينتمي إلى التراث الليبرالي والبورجوازي. وبالتالي فهو ضد الثورة والفكرة الاشتراكية الصاعدة آنذاك... وهناك سبب آخر لإهمال اسم لوبون هو أن كل الأحزاب السياسية من يمينية ويسارية تستخدم وصفاته في دعاياتها وإعلاناتها وطريقة مخاطبتها للجمهور في التأثير. فكل هذه الوسائل المستخدمة من قبل الأجهزة الحزبية والقادة السياسيين الذين يظهرون على شاشة التلفزيون ترتكز على استراتيجية واحدة هي: الإيمان بلاعقلانية الجماهير ضمنياً ثم التظاهر في نفس الوقت بأنها عقلانية ومنطقية! لهذا السبب يقال بأن كل زعيم سياسي يظهر على شاشة التلفزيون يضع مسبقاً قناعاً على وجهه لكي يقول ما يدغدغ عواطف الجماهير لا ما يعتقده عميقاً بالفعل".

بالعودة إلى "لا إكراه في الثورة"، وفي سياق "الربيع العربـي" الذي انقضت على انطلاقته تسعة أعوام، وعلى غير ما نرجو أن يؤول إليه الحال مع ثورتنا السودانية الفريدة هذه، نقرأ حينها أن "مزالق الثورة (وليست مزالق السياسة فحسب) قد أضحت مفاتيحها بيد المحنكين من المتقابلين على أطراف الثورة المناقض كل منها للآخر، بحيث بات الشباب الذي خرج أغلبه للثورة بريءَ المطامح مترعاً بالأمل أشبه بكرة تتقاذفها تلك الأطراف المحنكة ولا تتورّع أن تدحرجها إلى مشارف المزالق الثورية ثم تدعها تكمل الدحرجة بتلقائية من أجل غاية هنا وأخرى هناك يرى أبعادها المحنكون من الممسكين بمقاليد السياسة التي يصدق في حقها وصف اللعبة غير النظيفة، والأخير هو النعت الأكثر تهذيباً عندي لبديل يعرفه الجميع جيِّداً".

تستبد العاطفة بالثورة إذن كقدَر لا مفرّ منه، ولا غضاضه منه كذلك، بالنسبة للأنقياء من الجماهير. أما ما يلي الثورة فلن تجدي معه العاطفة الثورية نفعاً إلا إذا استغل الساسة ذكريات الثورة فأوسعوها استدعاءً لدغدغة مشاعر الجماهير عند كل منعطف حاد على طريق العمل في الواقع السياسي الجديد المشحون بالتحديات بطبيعة الانتقال الصارخ.

ولكن واقع ما بعد الثورات يشهد بأن رصيد قادة الحراك الثوري ليس مفتوحاً في قلوب الجماهير بحيث يسمح بالأخطاء والعثرات بلا حساب، فبقدْر جيشان العاطفة التي أخلصت في أتون الثورة تكون حدّة الترقّب لتباشير النهوض عقب تسلّم القادة الجدد مقاليدَ الحياة في الدولة الجديدة، وهو امتحان يجلس له أولئك القادة (متفاجئين؟) وتقوم بتقييم الأداء فيه الجماهيرُ التي هي بمثابة أستاذ ينشد الكمال، شحيح في منح الدرجات الكفيلة بضمان النجاح فضلاً عن إحراز التفوّق في أيٍّ من الموادّ.

غلاظة الثورة وبصيرة الثوّار

الثورة بطبيعتها غليظة مهما تكن طبيعة النظام الذي تستهدفه، فهي حالة لا تصل إليها الجماهير إلا بعد أن يستبدّ بها اليأس تجاه نظام لم تُجْدِ معه أيٌّ من أساليب التنبيه السلمية بما في ذلك ما هو خشن من تلك الأساليب.

وحين تستبدّ بها أسبابُ الثورة، تنطلق الجماهير في عزيمة الوحوش وبراءة الأطفال في آن معاً، فالعزيمة الكاسرة ليست سوى ردّة فعل تساوي مقدار التسلّط الفادح الذي تعرضت له وتعاكسه في الاتجاه بطبيعة الحال، أمّا براءة الأطفال فتمثّلها استجاباتُ الجماهير الثائرة لقياداتها المحرِّكة بصدق ونقاء، والصدق والنقاء منسوبان إلى الجماهير الثائرة وليس إلى قيادات الحراك الثوري التي لا يُستغرب منها أن تعمد إلى المكر السياسي، بل ربما لا تكون جدير بصفة القيادة من غير تحلّيها بكثير من ذلك المكر كما رأينا في سياق قريب.

وإذا كانت الحيلة في السياسة صفة ضرورية لقادة الحراك الثوري فإن المآرب الشخصية والحزبية لا يمكن إنزالها منزلة الضرورة بأية حال، لكنها موجودة بل متمكنة في أغلب الأحيان من نفوس أولئك القادة لسببين: الأول فطري تمثله طبيعة النفس البشرية المفطورة على الاستئثار بالخير والنصر ما وسعها الأمر، والثاني طبيعة القيادة السياسية المجبولة على استغلال الجماهير لما تراه خيراً وحقاً مما هو كامن في رؤاها وأهدافها.

سنقف مجدداً مع "سيكولوجية الجماهير" ومؤلفه غوستاف لوبون، ومع أن الرجل ظل "منبوذاً" - أو مهملاً في أفضل الأحوال - من قبل علماء

النفس والاجتماع الفرنسيين لأمد طويل بسبب آرائه التي شملها ذلك الكتاب والتي لا يمكن الاستشهاد بها بحال في مقام تبجيل الجماهير على حساب القادة السياسيين، فإن "سيكولوجية الجماهير" يحفل بالكثير مما يصلح للاستشهاد به في مقام بيان استغلال الساسة للجماهير، حتى إذا لم يُشر لوبون إلى تلك الجماهير المستغلة في إطار الحراك الثوري - على اختلاف أشكاله - بشيء من التقدير، وإنْ فعل ذلك بكثير من الجرأة والصدق الجارح.

بعد أن يعرض لما يمكن إجماله على أنه "صراحة جارحة وصادمة"، بل "وقحة" كما وصفها البعض، في تشريح نفسية الجماهير باعتبارها سبباً رئيساً لما حظي به المفكر الفرنسي الموسوعي من تجاهل من قبل علماء عصره، يقول هاشم صالح في تقديمه للترجمة العربية لـ "سيكولوجية الجماهير" الصادرة عن دار الساقي سنة 2016: "وهناك سبب آخر لإهمال لوبون واحتقاره من قبل التراث الجامعي الفرنسي المعاصر هو تبني أفكاره وتحليلاته من قبل الحركة الفاشية في أوروبا. ولعل ذلك هو السبب الأهم. فعلى الرغم من أن أفكاره قد دخلت إلى إيطاليا عن طريق الاشتراكيين الثوريين إلا أن جماعة موسوليني قد استولت عليها بسرعة واستخدمتها في شعاراتها ودعاياتها. وكذلك الأمر فيما يخص الحركة النازية في ألمانيا فقد استخدمته أيضاً لصالحها. ويرى بعض الباحثين أن تأثير كتاب لوبون على كتاب "كفاحي" لهتلر أوضح من أن يشار إليه. صحيح أن أفكاره قد استخدمت في كل البلدان الأخرى تقريباً من أجل السيطرة على الجمهور والتوصل إلى سدة السلطة، ولكن فقط النظام النازي في ألمانيا والفاشي في إيطاليا هما اللذان اعترفا بذلك صراحة. وهذا ما لوّثه كثيراً وأساء إلى سمعته. وهكذا إذا ما سألتهم: لماذا تتجاهلون لوبون؟ أجابوك: لأنه فاشي! ولكن إذا ما أردنا أن نشمل بنفس الحكم مفكرين آخرين شملنا ماكس فيبر وفرويد نفسه. فقد عبّرا عن أفكار مشابهة لأفكاره ولم ينعتهما أحد بالفاشية. والواقع أن سوء حظ لوبون يعود إلى أن هتلر وموسوليني كانا من قرّائه!".

لم تكن صراحة غوستاف لوبون إذن صارخة وجارحة، أو حتى "وقحة"، فحسب وإنما كانت ملهمة ليس فقط لواحدة أو اثنتين من أشهر دكتاتوريات التاريخ الحديث دموية، بل لأكثر من ذلك مما لم يجرؤ أصحابُه على الاعتراف به على نحو ما فعل النازيّون والفاشيّون بلا مواربة. وهكذا قد تكمن "جريمة" مفكر مرموق في أنه كان ملهماً بما يكفي لإراقة دماء ملايين الأبرياء ربما فقط لأنه حاول أن يكون متجرّداً/موضوعياً/صريحاً في أبحاثه، بصرف البصر عن القدر الذي يمكن أن يكون قد أضمره من المشاعر السلبية بسبب نشأة منبتّة الصلة بالجماهير.

غير أن مِن القادة مَن هم أكثر مكراً بحيث يستخدمون أفكار لوبون نفسها من أجل السيطرة على الجماهير حتى إذا لم يريقوا مباشرة من الدماء مثلما فعل هتلر وموسوليني. التدثّر بغطاء الغايات النبيلة أمرٌ مضاعف الخطورة إذا تمّ عبر وسائل تبدو نبيلة بدورها وهي تخفي بالتحايل ما يغالط المتذرّعون بها من القادة السياسيين أنفسَهم بشأن مكره وفظاعته، وكلٌّ على أية حال يفسر الحق والخير والجمال على أنه ما تضمّنته المبادئ والنصوص التي يقوم عليها حزبه أو طائفته.

أوتو كلينبيرج، الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة باريس وجامعة كولومبيا، يقول في توطئة إحدى طبعات كتاب "سيكولوجية الجماهير" عن غوستاف لوبون: "وهناك عدة أشياء أخرى يمكننا أن نلومه عليها ونختلف معه فيها. فهو من جهة يولّد الانطباع بأن هناك تطابقاً بين "الجمهور" والأعمال المتطرفة التي تصحب الثورة أو ترافقها. وهو من جهة أخرى يدمج في سيكولوجية الجماهير مداولات هيئة المحلفين في محكمة الجنايات وكذلك أنواع السلوك التي تتميز بها المجالس البرلمانية. ونحن نعلم أن سيكولوجيا واحدة لا تكفي إطلاقاً لتفسير طبيعة هذه الفئات المختلفة جداً. يضاف إلى ذلك أن معرفته بعلم الإناسة (أي الإثنولوجيا) تظل تبسيطية ومسطحة إلى حد ما. فهو يتحدث عن شيوعية بدائية لم يستطع أحد حتى الآن أن يبرهن على وجودها. وهو يشبِّه سيكولوجيا الجماهير بسيكولوجيا الإنسان "البدائي"".

بيد أن كلينبيرج يستدرك: "ولكن على الرغم من كل شيء فإن هذا الكتاب يستحق النشر ثانية!... لقد أثار كتاب غوستاف لوبون هذا الكثير من المناقشات الكبرى والاعتراضات، ولكنه حرّض أيضاً على ولادة عدد كبير من البحوث والكتب الجديدة... وعلى الرغم من كل نواقصه، فإنه قد مارس تأثيراً كبيراً على نشأة هذا العلم وتطوره. لذلك أقول في النهاية: اقرؤوا هذا الكتاب بروح نقدية، ولكن اقرؤوه".

سواء وافقنا الحانقين على غوستاف لوبون - من وجهة نظر علمية أو لمنطلق أخلاقي - حول آرائهم عنه أم لم نوافقهم الرأي، فإن الرجل بغض النظر عن نزعاته النفسية إزاء الجماهير وبصرف البصر عن خلفيته الاجتماعية، قدّم قراءة لسيكولوجية الجماهير من وجهة نظر يبدو أنها راقت كثيراً من القادة المشهود لهم بالبطش والدموية، وآخرين عرفوا كيف يتوارون خلف أقنعة من المثاليات وهم يفيدون من تلك الآراء بذات القدر وإن اختلفت الأشكال.

وبتجاوز مكامن الخلاف التي يبعثها الرأي والرأي الآخر حول سيكولوجيتها، فإن الجماهير في الغالب بريئة بما يكفي لأنه تهب نفسها للقادة الذين يؤثّرون فيها أبلغ تأثير، وليس منتظراً منها على كل حال أكثر من أن تمتلك بصيرة الانقياد للصالح الصادق من القادة (لأي مدى يستطيع أي من القادة المحافظة على هاتين الصفتين؟) إذا لم يكن ثمة مناص من الخضوع لتأثير القيادات الساحرة. وببعض التأنّي في النظر والحكم، يبدو أن أعمق مفاهيم الديموقراطية لا يتجاوز ذلك بصفة عامة، ففي الديموقراطية لا تحكم الجماهير نفسها وإنما تختار من يحكمها في الكيانات الرئاسية ومن يمثلها في المجالس النيابية على اختلاف أشكالها في كل بقعة من العالم، ثم تَقعُد لأولئك المختارين على طريق المراقبة والمحاسبة بالمرصاد.

استراتيجيات الثورة

ما نواجهه في الحياة ومعها يستحق أن يوصف بالحرب بعيداً عن حسابات التفاؤل والتشاؤم التي يختلف فيها الناس رجوعاً إلى فطرة كل واحد منهم، ونحن في حرب الحياة ضحايا وجلاّدون في آن معاً، وذلك بتجاوز إجادة بني آدم بصفة عامة لعبَ دور الفتى الطيّب والتلذذ في كثير من الأحيان بتمثيل دور الضحية.

بافتراض اتفاق جدلي على أن الحياة صراع، لن يكون من الصعب أن نتخيل أننا نعيش في حياتنا سيناريوهات حروب ومعارك شديدة التفاوت في الحجم والحدّة، ولن تكون ثمة مشكلة في مواجهة تلك المعارك والحروب التي لا تنقطع أكبر من ألاّ نقرّ بحقيقة وجودها ابتداءً، وهذا ما يفعله أغلب الناس في أغلب الأحيان.

ينفذ روبرت غرين بدقة إلى المعنى أعلاه الذي نحوم حوله، وذلك على مدى صفحات كتابه الكبير "33 استراتيجية للحرب" The 33 Strategies of War، الترجمة العربية عن دار العبيكان بالرياض ومشروع كلمة بهيئة أبوظبـي للثقافة والتراث سنة 2017. في مقدمة الكتاب: "إننا نعيش في بيئة ثقافية تروّج للقيم الديموقراطية التي تشدّد على أن نكون منصفين مع كل فرد ومع الجميع، كما تروّج لأهمية التأقلم ضمن مجموعة، ومعرفة كيفية التعاون مع أناس آخرين. ولذلك يتم تعليمنا في مرحلة مبكرة من حياتنا أن أولئك الذين يتسمون بنزعات قتالية أو عدوانية ظاهرة يدفعون ثمناً اجتماعياً باهظاً: اللاشعبية والعزلة".

يواصل غرين: "إن قيم التناغم والتعاون يتم تجذيرها بطرق خفية، وأخرى ليست بالغة الخفاء، عبر الكتب التي تتمحور حول كيفية النجاح في الحياة، وعبر المظاهر الخارجية المسالمة والوديعة التي يقدمها إلى عامة الناس أولئك الذين حققوا النجاح في العالم، عبر مفاهيم النجابة التي تملأ المساحة العامة. المشكلة التي نواجهها أنه يتم تدريبنا وتحضيرنا للسلام، فلا نعود مستعدين لما يواجهنا في العالم الحقيقي: الحرب".

لا يفترض أن يكون في الكلام أعلاه ما هو غريب، بالنسبة لنا في هذه المنطقة من العالم، سوى أن من يقوله مؤلف يعيش في أكثر البلاد حدّة في التنافسية. فإذا كانوا في الولايات المتحدة الأمريكية يدربون أبناءهم ويحضّرونهم للسلام بحيث لا يعودون مستعدين لمواجهة الحرب في العالم الحقيقي، فماذا نقول في عوالمنا الشرقية التي ترتفع فيها سقوف مثاليات القيم والتنشئة إلى سماوات بعيدة؟ ولكن ألا يبدو أننا نجيد التعامل مع متباينة سماواتنا المثالية وواقعنا المناقض بمهارة وتصالح فريدين؟

يناقش روبرت غرين في كتابه القيّم هذا استراتيجياتِ الحرب بوصفها استراتيجيات حياة، وهذا هو أعظم ما في الكتاب، فهو ينزع عن حياتنا الصفة المثالية التي نحب إضفاءها عليها لطمأنة أنفسنا على أن كل شيء بخير ثم التصرّف بشكل مناقض في الواقع عندما نكون أمام الحياة وجهاً لوجه - وأرجو أن يجوز التعبير - وليس أمام كاميرا تلفزيونية أو بصدد إلقاء خطبة في محفل مهيب. وهكذا فإن مقدمة الكتاب تؤكد أن: "الاستراتيجيات نفسها مختارة من كتابات وممارسات الجنرالات العظماء في التاريخ (الكسندر الأعظم، هنيبعل، جنكيز خان، نابليون بونابرت، شاكا زولو، وليم تكوميش شيرمان، إروين رومل، فو نغوين غياب)، كما من أعظم الاستراتيجيين (صان تسو، مياموتو موساشي، كارل فون كلوسفيتز، أردانت دوبيك، ت. إ. لورنس، الكولونيل جون بيرد). وهي تمتد من الاستراتيجيات الأساسية في الحرب الكلاسيكية إلى الاستراتيجيات غير التقليدية والقذرة في الأزمنة الحديثة".

لكن الأهم في الكتاب في سياقنا هذا أن: "كل فصل ترافقه أمثلة تاريخية، ليس من الحرب فقط بل من الممارسات السياسية (مارغريت تاتشر)، ومن الثقافة (ألفرد هتشكوك)، والرياضة (محمد علي كلاي)، والأعمال (جون د. روكفلر)، وهي أمثلة تظهر العلاقة الوثيقة بين العسكري والاجتماعي. هذه الاستراتيجيات يمكن تطبيقها في نضالات على أي نطاق: الحرب المنظمة، معارك الأعمال، سياسات مجموعة معينة، وحتى العلاقات الشخصية".

لسنا مضطرين إذن إلى تأكيد أن تلك الاستراتيجيات يمكن تطبيقها على الثورة إذا كانت قابلة ابتداءً للتطبيق على العلاقات الشخصية، وإن يكن جديراً بالانتباه أننا على هذا الصعيد أمام أحد أكثر السياقات إغراءً بتذكير الصلة القوية بين الثورة والحرب بما ينزع القداسة عن الفعل الثوري، إلا ما كان متعلقاً بدوافع الثوار المخلصين إخلاص المحاربين المندفعين إلى الهلاك بتجرّد من مطامع الحياة بعيداً عن مآرب القادة المحرضين، سواءٌ على نطاق الحرب أو الثورة، وهي مطامع مفهومة ومشروعة، ولكن في إطار حق السعي إلى الريادة والسيادة وما يستوجبه من عقيدة قتالية، وليس بادّعاء دوافع نبيلة وغايات طوباوية.

هذا من المنطلق الأخلاقي الصرف في تقييم الأمور، فواقعية استراتيجيات الحرب والثورة تبيح ادّعاءً كهذا الذي ننعاه على قادة الحروب ومحرضي الثورات. وتحديداً، فإن الاستراتيجية الخامسة والعشرين في كتاب غرين هي "استراتيجية زعم الحق"، وهي استراتيجية قديمة قدم تاريخ الحرب وصراع البقاء، يعرفها القادة الأوائل بالسليقة، بل ويقدم عليها كل فرد في أي خلاف بالفطرة.

غير أن "زعم الحق" يأخذ بعداً شديد المراوغة في الثورة، فهو سلاح فعال وفتّاك، لكن سِحره قد ينقلب على الساحر إذا افتضح أمره من قِبل الجماهير البريئة. يقول غرين: "في عالم سياسي، ينبغي أن تبدو قضيتك أكثر عدالة من قضية العدو. فكّر في هذا بوصفه ميداناً أخلاقياً تتنازع عليه مع الطرف الآخر، عبر التشكيك بدوافع أعدائك وإظهارهم بمظهر الأشرار،

تضيق قاعدة دعمهم وقدرتهم على المناورة. صوب نحو الأماكن الهشة في صورتهم العامة، وافضح أي نفاق يبدر منهم".

يواصل غرين في السياق ذاته: "لا تفترض أبداً أن عدالة قضيتك تبرهن ذاتها بذاتها، بل عليك بالإعلان والترويج لها. وحين تتعرض أنت نفسك لهجوم أخلاقي من عدو ذكي، لا تغضب أو تنتحب، بل رد على النار بالنار. وإذا ما استطعت فضع نفسك موضع المسكين والضحية والشهيد. تعلّم كيف تصيب عدوك بالذنب كنوع من السلاح الأخلاقي".

هل غابت أيٌّ من استراتيجيات الحرب الثلاثة والثلاثين التي أحصاها روبرت غرين، وغيرها مما تلقّنه الكليات الحربية منذ الأزل، على منظِّري الحراك الثوري عندنا أو عند غيرنا؟ لو كانت الإجابة: "نعم ربما غابت" لما استحق أيٌ من أولئك المحرضين الثوريين صفة "قائد"، وذلك بمنأى عن حساب النوايا والغايات وهو يتأرجح بين الطهر والدنس بحسب زعم المتصارعين على طرفَي الثورة المتقابلين.

مكر الجماهير الثورية

الجماهير الثورية أذكى مما يتصوّر قادتها، ولكنها تحب أن تبدو أحياناً كما لو أنها تنطلي عليها دعاوى القادة الثوريين بشأن المستقبل الأفضل، وهي دعاوى لا يعيبها سوى أنها غير مضمونة التحقّق كما يؤكد مروّجوها وهم بصدد الحشد الثوري، فلا شيء في الثورة متفق عليه بين أنصارها مثل إبطال الباطل ممثلاً في النظام الذي يُفترض أنه بات منتهيَ الصلاحية، أمّا إحقاق الحق فهو امتحان المدينة الفاضلة التي يغرق في بحورها القادة الثوريون بعد أن يعتلوا مناصب كانت في حوزة خصومهم الذين رمت بهم الثورة إلى أحضان التاريخ التي تحتمل من القسوة أضعاف ما تستوعب من الرحمة والغفران.

بالعودة إلى روبرت غرين ومقدمة كتابه "33 استراتيجية للحرب" The 33 Strategies of War نقرأ: "هذا لا يعني أننا وزملاءنا كائنات منحطة لا تستطيع العيش وفقاً لمثل السلام وإنكار الذات، لكنه يعني أننا لا نستطيع فعل شيء حيال طبيعتنا. فنحن لدينا ميول عدوانية يستحيل إنكارها أو كبتها. في الماضي، كان الأفراد ينتظرون من مجموعة ما، سواء أكانت الدولة أم العائلة الكبيرة أم الشركة أن ترعاهم، لكن الحالة لم تعد كذلك في زمننا الراهن، وفي هذا العالم الذي تنعدم فيه مثل هذه الرعاية علينا أن نفكّر أولاً وأخيراً بأنفسنا وبمصالحنا الخاصة. ما نحتاج إليه ليس مثلاً مستحيلة وغير بشرية حول السلام والتعاون التي يفترض أن نعيش وفقاً لها، والارتباك الذي نعيشه بسبب ذلك، بل نحتاج إلى معرفة عملية في كيفية التعامل مع الصراع والمعارك اليومية التي نواجهها. وهذه المعرفة لا تعلمنا أن نكون أكثر قوة في نيل ما نريده، أو في الدفاع عن أنفسنا، إنما تعلمنا أن نفكر بطريقة أكثر عقلانية

واستراتيجية حين يأتي وقت الصراع، وأن نوجّه نوازعنا العدوانية بدلاً من إنكارها أو كبتها. إذا كان ثمة من مثال ينبغي أن نصبو إليه فهو مثال المقاتل الاستراتيجي، الرجل أو المرأة الذي يحسن التصرف في مواقف صعبة ومع أناس صعبة، عبر الرشاقة والمناورات الذكية".

الجماهير الثورية ليست إذن ساذجة، ولا يفترض منها بحال أن تكون حسنة النية فيما يتعلّق بتوقعاتها من الساسة على اختلاف مواقعهم، فتلك الفطنة أولى بها في مقامات السياسة إذا كان من الضروري علينا جميعاً أن ندرك "معرفة عملية في كيفية التعامل مع الصراع والمعارك اليومية التي نواجهها"، وكان من المهم ابتداءً "أن نفكر بطريقة أكثر عقلانية واستراتيجية حين يأتي وقت الصراع، وأن نوجّه نوازعنا العدوانية بدلاً من إنكارها أو كبتها"، وذلك كما رأينا للتوّ مع روبرت غرين.

إذا قلنا، والحال كتلك، إن الجماهير الثورية تغوص أحياناً في لعبة الثورة وحِيَلها الماكرة من الرأس إلى أخمص القدم فلن نكون قد ارتكبنا جناية أو إهانة أو خطأً تجاه تلك الجماهير، فذلك حقها وفق منطق الدنيا التي تؤخذ غلاباً وحيلةً قبل أن يكون حقها وفق أية شرعية ثورية مستحقة أو مدّعاة.

ولكن الجماهير تحكم بعاطفتها أكثر مما تتكئ على سعة حيلتها، وهي في هذا أيضاً ليست ملومة إلا بقدر إصرارها على غض البصر عن استغلالها من قبَل القادة الثوريين وإن يكن تمريراً للمصلحة المشتركة ممثلة في الإطاحة بالنظام بوصفه غاية الثورة الأساس. والأرجح أن غض الجماهير الثورية أبصارها عن استغلال القادة الثوريين يكون بدافع هو خليط من الانسياق العاطفي والاحتكام إلى الحيلة. ومن الحكمة على كل حال، ومهما تكن مقتضيات حموّة اللحظة الثورية، الانتباه إلى مغبّات الانجراف العاطفي درءاً لمغبات خذلان الوفاء بالوعود التي يمكن إجمالها في واقع يشبه الأحلام لا مناص لأية ثورة من أن تعِد جماهيرها به.

ينصح غرين وهو يقدّم لاستراتيجيات الحرب بضرورة النظر إلى الأشياء بحجمها الطبيعي لا كما تصوّرها العاطفة: "في التفكير الاستراتيجي

عليك أن تنظر إلى ردود أفعالك العاطفية كنوع من المرض الذي يجدر بك أن تشفى منه. فالخوف يجعلك تبالغ في تقدير حجم عدوك وتتصرف بطريقة دفاعية مبالغ بها. أما الغضب وانعدام الصبر فسيدفعانك إلى القيام بتصرفات متسرعة تقضي على خياراتك. وكذلك، فإن الثقة الزائدة بالنفس، خصوصاً كنتيجة للنجاح، ستجعلك تجمح أكثر مما ينبغي".

يواصل غرين: "الحب والعاطفة سيعميانك عن المناورات الخيانية التي يقوم بها أولئك الذين هم ظاهرياً إلى جانبك. حتى أبسط التدرّجات في هذه العواطف يمكنه أن يصبغ الطريقة التي ترى الأحداث بها. والعلاج الوحيد هو أن تكون واعياً أن قوة العاطفة لا يمكن تفاديها، وأن تلاحظها حين تحدث، وأن تعوّض عنها. فحين تصيب النجاح اتخذ أقصى الحذر. وحين تكون غاضباً لا تقم بأي تصرف. وحين تكون خائفاً اعلم أنك ستضخّم المخاطر التي تواجهها. فالحرب تتطلب أقصى الواقعية، ورؤية الأمور بحجمها الطبيعي. وكلما كنت قادراً على تحديد ردود أفعالك العاطفية واستبدالها، كنت أقرب من هذا المثال".

يبدو التورّط في الحرب محكوماً بدوافع عاطفية/انفعالية إلى حد بعيد، لكن استراتيجيات الحرب وتكتيكاتها يجب أن تنأى عمّا هو عاطفي إلى أبعد حدّ ممكن. الثورة كالحرب كما أشرنا مراراً، ومع مكر الدوافع الثورية يبدو السؤال المطروح أخلاقيّاً أكثر مما هو عاطفي، فالمبدأ هو الأكثر عرضة للامتحان الذي يخضع له الثوار - على المستويات القيادية والجماهيرية على السواء - أكثر من العاطفة. وإن يكن جديراً بالانتباه أنه في أتون الحرب/الثورة/الحياة تبدو العلاقة بين المبادئ والعواطف شديدة التداخل بما يجعل فض الاشتباك بينها مهمة أقرب إلى المستحيلة.

والحال كتلك، يبدو غريباً أن يعمد روبرت غرين إلى تسمية الجزء الخامس من كتابه "الحرب غير التقليدية أو القذرة"، ولو أنه اكتفى بالوصف "غير التقليدية" لفعل خيراً، فأيّ أنواع الحرب أو استراتيجياتها يستحق الوصف "نظيفة"؟. ربما تتبدّد بعض الدهشة التي تلفّ السؤال بالغوص في

تفاصيل الجزء الخامس الذي يعرض لـ: فبركة الواقع، واستراتيجية زعم الحق، وزرع بذور القلق والذعر عبر أعمال إرهابية، وهلمّ جرّاً.

الثورة والمدنيّة

"أعتقد بوجود مدى واسع أمام المجتمع المدني والمنظمات الأهلية لملء فراغ القيادة الذي خلفه الاضطراب والتشوش في المجتمع الدولي. ولا يمكن للمجتمع المدني اغتصاب المكان الذي تحتله الدول ذات السيادة في نظام عالمي قائم على مبدأ السيادة، لكن على الحكومات الديموقراطية الانتباه إلى رغبات الشعوب. ويمكن للمجتمع المدني أن يكون فاعلاً عبر ممارسة تأثير في الحكومات، أو عبر العمل، حول قضايا محددة، بالتعاون مع الحكومات".

هذا رجل الأعمال، مجري الأصل أمريكي الجنسية، جورج سوروس في كتابه The Age of Fallibility، والاقتطاف عن النسخة العربية "عصر اللاعصمة" الصادرة بترجمة معين الإمام عن "العبيكان للنشر" بالرياض سنة 2008. سوروس ليس سياسياً وإنما مستثمر كانت الأعمال مدخله إلى السياسة، ربما بصورة أبرز عبر "دعمه للسياسات الليبرالية وبدوره الفعال في مرحلة التحول من الشيوعية إلى النظام الرأسمالي في المجر 1984-1989"، وذلك كما يرد في النسخة العربية من ويكيبيديا.

ولكن علاقة جورج سوروس بالسياسة وأهلها أوطد من أن يتم المرور عليها كالكرام حتى إذا كان مدخلها الرئيس هو عالم المال، والمال على كل حال يكاد يكون ما يقوم عليه عالمنا بأسره إذا كان لا بد من نسبة أساسه إلى مجال بعينه.

للتأكيد على "تورّط" جورج سوروس في اللعبة السياسية تورّطاً عميقاً نقتطف أولى كلماته في الكتاب بعد كلمة الشكر والتقدير. يفتتح سوروس

تمهيده بالكلمات التالية: "يحلم الكثيرون بجعل العالم مكاناً أفضل حالاً، لكن حالفني الحظ في تحقيق أحلامي أكثر من معظم الناس. ومع ذلك، فقد تعرض التأثير الذي مارسته للمبالغة والتهويل. إذ قيل إنني "الرجل الذي دفع بنك إنجلترا إلى حافة الإفلاس" حين أجبرت بريطانيا على الخروج من آلية سعر الصرف الأوروبية. أما مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيا السابق، فقد اتهمني بالتسبب بالأزمة المالية الآسيوية عام 1997. بينما حملني الرئيس الروسي فلاديمير بوتين مسؤولية ما سمي بالثورة الملونة في كل من جورجيا وأوكرانيا. كما اتهمت بمحاولة شراء الانتخابات بعد أن اتخذت موقفاً معارضاً لإعادة انتخاب الرئيس بوش عام 2004". يواصل سوروس نافياً التهم عن نفسه: "هذه المزاعم جميعاً مبالغ فيها أو لا أساس لها من الصحة"، غير أنه لا يلبث أن يستدرك: "لكن يتعذر الشك في حقيقة أنني لعبت دوراً في بعض من هذه الأحداث والعديد غيرها".

بالعودة إلى حديث جورج سوروس في كتابه عن المجتمع المدني، وتحديداً عن المجتمع المدني العالمي، نقرأ: "لعب المجتمع المدني دوراً صاخباً على نحو متزايد في الشؤون العالمية خلال السنوات الأخيرة. أما التمظهرات التي اجتذبت شاشات التلفزيون فشملت أعمال الشغب الموجهة ضد المنظمات الدولية. بدأ الأمر مع مظاهرات سياتل عام 1999، واستمر مع كل اجتماع تعقده التجارة العالمية، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومجموعة الدول الكبرى الثماني. أعد هذه الجهود خاطئة في وجهتها لأنها تسعى للحصول على الشهرة عبر استفزاز الاضطراب والفوضى والسعي إلى أهداف خاطئة. فالمؤسسات الدولية تعكس غالباً سياسات الدول الأعضاء، وهذه الأخيرة هي التي يجب أن تحمل المسؤولية. وبمقدورنا أن نعزو معظم البؤس والفقر في العالم إلى سياسات الدول ذات السيادة، لكنها لا تشكل أهدافاً للمظاهرات الغاضبة".

تلك وجهة نظر لرجل أعمال يختلط فيها ما هو سياسي بما هو اقتصادي، ومهما تكن المواقف إزاءها بين طرفي الموافقة والاعتراض، فإن ما يعنيه سوروس كما أشرنا ليس المجتمع المدني بصفة عامة وإنما تأثير

ذلك المجتمع على المستوى العالمي بصفة أساسية، وهو بطبيعة الحال أمر بعيد عمّا يعنيه الثوار داخل أيٍّ من دول العالم في أتون صراعهم لتحقيق حكومة مدنية عقب الإطاحة بحكم شمولي من أي قبيل. وبمزيد من الدقة فإن ما يتحدث عنه جورج سوروس في كتابه عن المجتمع المدني العالمي هو غاية ما يتوق للوصول إليه أولئك الثوار في أيٍّ من البلدان التي ينطبق عليها التصنيف القاسي: العالم الثالث.

الحصول على حكومة مدنية لا يكفل تحقيق مجتمع مدني منتج ومؤثر تحقيقاً تلقائياً كما يجوز لنا أن نحلم في أعقاب ثورة كانت أثمانها باهظة وإن تكن ثمارها يانعة وشهية بما لا يخلو من مرارة تحديات مربكة ماثلة وأخرى مرتقبة. ولكن مشوار ألاف الأميال، وربما ملايينها، لا يبدأ سوى بتلك الخطوات المتعثرة التي هي أقرب إلى الحبْو عقب الفراغ من جهاد الثورة الأصغر والولوج إلى مزالق جهادها الأكبر ممثلاً في التعامل المتواصل مع واقع السياسة وألعابها الملتوية غير النظيفة.

المجتمع المدني لا يتحقق بحكومة مدنية فحسب، قدر ما يتطلّب تكاملاً من كافة أعضاء الدولة والمجتمع بما في ذلك مؤسساته العسكرية والأمنية. ودور المؤسسات العسكرية والأمنية في إثراء المجتمع المدني لا يعني الكف عن التدخل في شؤون ذلك المجتمع، وإنما يتجسّد - على سبيل المثال - في مشاركة كل عضو من تلك المؤسسات في المجتمع المدني مشاركة فاعلة بوصفه واحداً من أبناء ذلك المجتمع وليس رجوعاً إلى واجبه الوظيفي الذي يُختزل في الدفاع عن الوطن وضمان أمنه، وهذا ليس بالأمر الهيّن على كل حال.

المجتمعات المدنية طبقات ترتقي فيها كل دولة بحسب حظها من الفلاح في تحقيق مضامين دولة المؤسسات ثم الذهاب بتأثير دور منظمات المجتمع في تلك الدولة إلى أبعد الغايات، وهذه كما هو ظاهر مهمة لا تحققها ولا تضمنها ثورة ما لم يحاسب كلُّ فرد من أفراد المجتمع نفسَه على صعيد العمل والنزاهة كما يحاسب حكّامَه، سواءٌ أولئك الذين تم إقصاؤهم بالثورة أو أولئك الذين جاؤوا في قطار الثورة.

الثورة والديموقراطية

"أدرك جيفرسون Thomas Jefferson، ولو إدراكاً ضعيفاً، أن الثورة، برغم منحها الحرية للشعب، أخفقت في توفير فضاء يمكن فيه ممارسة هذه الحرية. فممثلو الشعب وحدهم، وليس الشعب نفسه، كانت لديهم الفرصة في الانهماك في تلك النشاطات الخاصة (بالتعبير والنقاش واتخاذ القرار)، وهي نشاطات الحرية بمعنى إيجابـي. ولما كانت حكومات الولايات والحكومة الاتحادية (الفيدرالية)، التي تمثل أعظم منجزات الثورة، مصممة على أن تتفوق، من خلال ثقل وزن أعمالها وفي مجال الأهمية السياسية، على المدن وعلى أماكن عقد اجتماعاتها... فإن في وسع المرء أن يتوصل إلى نتيجة مفادها أن فرصة ممارسة الحرية العامة والإحساس بالسعادة في جمهورية الولايات المتحدة أقل من تلك التي كانت موجودة في مستعمرات أمريكا البريطانية. وقد أوضح مؤخراً لويس ممفورد Lewis Mumford كيف أن أهمية المدينة السياسية لم يفهمها مؤسسوها، وأن الإخفاق في دمجها بالدستور الاتحادي أو دستور الولايات كان: واحداً من الأخطاء المأساوية التي حدثت في التطور السياسي في حقبة ما بعد الثورة. وكان جيفرسون وحده من بين المؤسسين يدرك إدراكاً واعياً هذه المأساة، لأن خوفه الأعظم كان يتمثل في: افتقار نظام الديموقراطية السياسي المجرد مؤسسات راسخة".

هذا ما قالته هانا آرندت/ حنة آرنت Hannah Arendt الفيلسوفة والمنظرة السياسية الأمريكية ألمانية الأصل في مقالة لها ضمن كتاب Democracy من تحرير المنظر السياسي الأمريكي فيليب قرين Philip Green جمع فيه كتابات قديمة وحديثة عن الديموقراطية المجردة

والحكومات المنتخبة لمفكرين وكتاب مختلفين، والترجمة العربية صادرة بعنوان "الديموقراطية" عن وزارة الثقافة ودار المأمون للترجمة والنشر ببغداد عام 2007.

الجدال حول الديموقراطية ممتد، والحالة أعلاه عن واحدة من أبرز الأمثلة الملهمة في التاريخ الحديث، كون التجربة الديموقراطية التي أفرزتها الثورة الأمريكية أواخر القرن الثامن عشر لم تنشأ عن شعب منبتّ الصلة بالديموقراطية، فالمؤثّرون في ذلك الشعب قد هاجروا من دول راسخة الديموقراطية حينها ليشكلوا دولة/مستعمرات ثارت بدورها لتشكل دولتها الديموقراطية المستقلة بمنأى من وصاية الإمبراطورية البريطانية.

ملابسات تكوين المستعمرات ثم قيام الثورة الأمريكية وما تبعه من نشوء الولايات المتحدة، كل ذلك يفيد بأن الديموقراطية ليست مسألة قطعية في دلالاتها وتجلياتها، ولا هي فضيلة مطلقة في حوزة أمة أو بقعة بعينها من العالم. فها هي ديموقراطية عريقة تُقْدِم على غزو بعض أطراف العالم القصيّة (استكشافه؟) لتنشئ مستعمراتها، فتنشأ الثورة في تلك المستعمرات ليس من جانب سكان الأرض الأصليين وإنما من قبل المستكشفين/المستعمرين أنفسهم استقلالاً عن البلد الأم الذي انطلقوا غزواً منه، ليتم تشكيل ديموقراطية جديدة ستلهم العالم لاحقاً بالفعل، وستغزوه كذلك بالفعل ولكن بإعادة تعريف الغزو والاستعمار ليتأرجح التعريف الجديد بين ما هو عسكري وما هو سياسي وما هو دبلوماسي وما هو ثقافي وما هو اقتصادي وما هو اجتماعي، إلى غير ذلك من الأشكال المتداخلة والملتبسة التي يتورط فيها الجميع بدرجة أو بأخرى.

وهكذا قد تكون ديموقراطية حقيقية بالفعل سبباً لكوارث مناقضة للديموقراطية شكلاً وجوهراً على مستوى العالم، غير أن ما تشير إليه حنة آرنت في المقتطف السابق ليس متعلقاً بوجه الديموقراطية الأمريكية الآخر الذي يتكشف كل يوم مع تدخلات الولايات المتحدة على امتداد خارطة الكرة الأرضية، وإنما يتعلق بإشكاليات الديموقراطية نفسها عندما يتم

تطبيقها فلا يسفر التطبيق عن تجليات الأحلام الموعودة خلال حملات الترويج التنظيرية، لا سيما في أعقاب ثورة مجيدة.

إذا كانت تلك هي الحال مع واحدة من أهم الديموقراطيات على الأرض، بصرف النظر عن وجهها الآخر الذي يتبدّى للعالم كما أشرنا للتوّ، فإن ما ينتظرنا في أعقاب الثورة الأخيرة في السودان مع الديموقراطية من الإشكاليات بالغ الكثرة وبالغ التعقيد لا ريب. وكنّا قد أشرنا مراراً إلى أن الديموقراطية لا بدّ لها من ثورة، لكن الثورة وحدها لا تضمن الديموقراطية، فالتاريخ المعقد لنا وقد تراوحْنا بين العديد من التشكّلات السياسية والاجتماعية المختلفة والمتناقضة في كثير من الأحيان أمرٌ يجب الوقوف عنده وتأمُّله وتحليله مليّاً قبل الاستغراق في أحلام التمرّغ في النعيم الديموقراطي بين عشية ثورية وضحاها.

في مقابلة حديثة على قناة فرانس 24 العربية لمناقشة مآلات الانتخابات الرئاسية التونسية الأخيرة، أشاد الضيوف كلهم تقريباً بريادة التجربة التونسية على المستوى الإقليمي، والعربـي تحديداً. وزادت صحافية تونسية على الآخرين مؤكدة أن ما حدا بالتجربة التونسية في أعقاب الثورة إلى تلك الفرادة هو تاريخ فريد بدوره على المستوى العربـي من حيث تقديره للدستور مفهوماً وتطبيقاً كمثال عام على عمق تاريخ الفكرة الديموقراطية، ومن حيث تقديره لحقوق المرأة على سبيل المثال الخاص. وكان راشد الغنوشي قد أشار بدوره قبل سنوات إلى أنه، وتقديرُه معروف للإسلاميين السودانيين، لا يمكن مقارنة تجربة الحركة الإسلامية في السودان بنظيرتها في تونس، فالأخيرة تصدر عن مجتمع له تجربته التاريخية المستقلة.

وبالارتداد إلى المثال الأمريكي الأبعد زماناً ومكاناً، نقف مجدداً مع حنة آرنت، هذه المرة عند قولها: "غير أن المرء ينتابه الشك في أن المؤسسين كان ينبغي لهم أن يجدوا سهولة في الاقتناع بفكرة أن الثورة قد فتحت الميدان السياسي، في الأقل، لأولئك الذين كان ميلهم إلى (ممارسة السلطة الحميدة) قوياً، وتطلعهم إلى التميز متقداً على نحو يكفي لتحمل

أعباء خطيرة في الحياة السياسية. لكن جيفرسون رفض ذلك الاقتناع، وخشي من (حكومة استبدادية منتخبة) تساوي أو تزيد شرورها عن شرور حكومة الطغيان التي انتفضوا ضدها: إذا ما توقف شعبنا عن الاهتمام بالقضايا العامة فسنصبح أنا والكونغرس والجمعيات والقضاة والحكام ذئاباً. وإذا كان التطور التاريخي في الولايات المتحدة لا يتحمل مثل هذا الخوف، فإن السبب يرجع أساساً إلى ما يملكه المؤسسون من معرفة في علم السياسة عند تأسيس حكومة مرّ فيها تقسيم السلطات خلال ضوابط وموازنات في الرقابة".

تواصل حنة آرنت: "إن الذي أنقذ الولايات المتحدة من المخاطر التي خشيها جيفرسون هو آلية الحكومة، إلا أن هذه الآلية لم تستطع إنقاذ السكان من اللامبالاة بالقضايا العامة طالما أن الدستور نفسه لم يوفر فضاءً عاماً إلا لممثلي الشعب وليس للشعب نفسه".

الأهم في سياقنا هذا ليست التجربة الثورية أو التجربة الديموقراطية الأمريكية، بصرف النظر عن الموقف من تحليل المنظّرة السياسية المرموقة، ولكن ما يمنحه التأمّل في ذلك التحليل عظيمٌ. فنوايا الثورة الحسنة لا تكفي لأن تمنح المجتمع صكّاً بضمان نجاح التجربة الديموقراطية إذا لم ينتبه الجميع إلى الوقوف عند خصوصيات مجتمعهم وتجاربه على مدى التاريخ، عوضاً عن الانشغال بادّعاء الصلاح واتهام الآخر بالفساد وتنازع الكعكة السياسية من ثم في ظلال إحن الماضي وثأراته التي لن تنتهي إلا بالجرأة على الانصراف إلى مواجهة التحديات المجردة لمستقبل الدولة شديد التعقيد.

طفل الثورة ووحش الديموقراطية

عن العلاقة التي لا يمكن أن تمضي في خط مستقيم أو تختزلها معادلة بسيطة كما أشرنا في أحاديث قريبة، عرضنا مراراً في كتاب "لا إكراه في الثورة" إلى معضلة الديموقراطية بعد لهيب ثورة شديدة الاشتعال وفي ظلال نظام وليد طموح يعقب تلك الثورة، وذلك تحت عناوين من قبيل: "هل الديموقراطية مقدّسة؟"، "الديموقراطية على جرعات"، "كل أمريكي ديموقراطي وجمهوري بالبديهة"، "ما بعد الانتخابات وقبل الديموقراطية"، "التغيير الديموقراطي على الطريقة السودانية"، "داخل كلٍّ مِنَّا دكتاتور كبير"، "الخطوة الثانية وما بعدها نحو الديموقراطية"، "نتحدّث عن الديموقراطية ونعني غيرها"، "ما تضمنه الديموقراطية وما لا تضمنه"، وفي غيرها من المواضع والكتب التي تناولنا عبرها طبائع الشخصية الوطنية والشخصية القومية في العالم العربـي.

لا ريب أن الثورة فعل عظيم واستثنائي قياساً إلى الركون الذي عادة ما يكون طويلاً استسلاماً إلى طغيان نظام متسلط على اختلاف أشكال التسلط، سواءٌ في أتون دكتاتورية فردية أو طغيان حزبـي أو غير هاذين النمطين من أشكال الاستبداد التي هي في الغالب مزيج من طغيان الفرد وسطوة الجماعة، أو بالأحرى علاقة تكافلية بين طغيان الفرد وطغيان الجماعة.

غير أن الثورة تبدو بالفعل مستحِقّة لأن توصف بـ "الجهاد الأصغر" إذا قيست بالديموقراطية المرتجاة مع نشوء الكيان الجديد في أعقاب الثورة، فإنشاء الدولة الديموقراطية يستحق بدوره لقب "الجهاد الأكبر" ليس فقط

لأنه فعل طويل قياساً إلى فورة الثورة الجامحة والخاطفة، بل - قبل ذلك - لأن العراقيل التي من شأنها أن تنسف استواء الديموقراطية على عودها في النظام السياسي الجديد كثيرة ومتشابكة ومزمنة، بعضها مصطنع وإن يكن أخطرُها ما هو تلقائي. وإذا كان المصطنع من العراقيل هو ما يتم خلقه بواسطة أنصار الثورة المضادة، فإن التلقائي هو ما يفرزه جسد المجتمع من الأجسام المضادة لكيان الديموقراطية الغريب الذي يسعى إلى اقتحام مجتمع لم يعهد التعامل العميق مع حرية التعبير، فيحاول ذلك المجتمع أن يختصر معضلة تعثراته التاريخية في شخصيات حكام مستبدين أو جماعات متسلقة تساند أولئك الحكام وهي أصلاً جزء أصيل نبت في ذلك المجتمع ولم يأت متخفّياً في صحبة جحافل من الغزاة الأجانب.

بالعودة إلى هانا آرندت/ حنة آرنت Hannah Arendt في مقالة لها ضمن كتاب Democracy، نقف مع الفيلسوفة والمنظرة السياسية في معرض حديثها عن ملابسات تكوين المستعمرات ثم قيام الثورة الأمريكية وما تبعه من نشوء الولايات المتحدة في ظل مفهوم جديد للتجربة الديمقراطية أواخر القرن الثامن عشر، وبصفة خاصة كما عرض للتجربة الرئيس الأمريكي جيفرسون: "كان موفدو الشعب وليس الشعب نفسه هم الذين يشكلون الملكوت العام، في حين إن الذين أوفدوهم عنهم والذين كانوا نظرياً مصدر السلطة ومكانها ظلوا خارج الأبواب على الدوام. كان لا بد لنظام الأشياء أن يكفي لو أن جيفرسون آمن حقاً كما قال في بعض الأحيان بأن سعادة الناس تكمن كلها في رفاهيتهم الشخصية، إذ بسبب الأسلوب الذي أسست فيه حكومة الاتحاد، بما في ذلك تقسيم السلطات وفصلها ووجود الرقابة والموازنة، فإنه لا يرجح ظهور حكومة استبدادية من بينها. لكن الشيء الممكن حدوثه، والشيء الذي حدث حقاً مرات ومرات منذ ذلك الزمن هو أن المنظمات التمثيلية لا بد أن تغدو فاسدة ومنحرفة... إلا أن مثل هذا الفساد لم يكن وارداً بسبب تآمر المنظمات التمثيلية ضد السكان الذين يمثلونهم. إن الفساد في مثل هذه الحكومة يرجح أن يظهر على الأكثر من وسط المجتمع، أي من بين السكان أنفسهم".

ومع ضرورة تذكّر عراقة المجتمع موضع الحديث أعلاه مع الفكرة الديموقراطية ومبادئ حرية التعبير كما أشرنا من قبل، وذلك مقابل تجاربنا الحديثة والمتعثرة جداً في المقام ذاته، نواصل قراءة تعليق الفيلسوفة الأمريكية الألمانية حول بيت قصيدنا في هذا المقام ممثلاً في مسؤولية المجتمع نفسه عن الفساد: "الفساد والانحراف أكثر ضرراً، وفي الوقت نفسه يحتمل حدوثهما في جمهورية تسودها المساواة أكثر من أي شكل آخر من أشكال الحكم. ويحدثان عندما تغزو المصالح الخاصة الميدان العام، أي أنهما يظهران من القاعدة وليس من القمة. ويرجع السبب إلى أن الجمهورية تقصي مبدئياً الثنائية القديمة المتمثلة بالحاكم والمحكوم، وأن فساد الهيئة السياسية لا يترك الناس بمنأى عن ذلك كما هو الحال في الأشكال الأخرى للحكم، حيث لا يتأثر إلا الحكام أو الطبقات الحاكمة، وحيث يعاني أول الأمر أناس (أبرياء) ومن ثم يحدث عصيان رهيب ولكنه ضروري. إن فساد الناس أنفسهم - وهو فساد يختلف عن فساد ممثليهم أو الطبقة الحاكمة - لا يحدث إلا في ظل حكومة منحتهم قسطاً من السلطة العامة وعلمتهم كيفية استخدامها. وإذا ما ردمت الهوة بين الحاكم والمحكوم، فإنه يمكن أن يصبح الخط الفاصل بين العام والخاص خطاً واهياً دوماً من حيث ملامحه، وبالتالي يزول".

تواصل حنة آرنت: "تكمن العلاجات الوحيدة لسوء استغلال السلطة من الأفراد في الملكية العامة نفسها، في ضوء ما يتبين عن كل فعل يجري اتخاذه ضمن حدودها، حيث يكشف عن كل الذين ينهمكون فيه. على الرغم من أن الاقتراع السري لم يكن معروفاً آنذاك، إلا أن جيفرسون أدرك في الأقل مدى خطورة السماح للناس بنصيب من السلطة دون منحهم فضاءً عاماً أكبر من صندوق الاقتراع، وفرصة أكبر لإسماع أصواتهم علناً وليس في يوم الاقتراع. وأدرك أيضاً أن الخطر الأكبر والقاتل للجمهورية يتمثل في أن الدستور منح السلطة كلها للمواطنين دون أن يمنحهم الفرصة لأن يكونوا جمهوريين والتصرف بوصفهم مواطنين. بعبارة أدق، تمثل الخطر في أن السلطة برمتها مُنحت للسكان بصفتهم الشخصية ولم يكن هناك مجال محدود لهم بوصفهم مواطنين".

هذه المقتطفات بالغة الخصوصية، لكن دلالاتها بالغة العمومية من حيث ضرورة الانتباه إلى أن قيام الدولة المدنية/الديموقراطية لا يعني ولا يضمن بحال انتهاء مشاكل الحكم، فضلاً عن مشاكل الجماهير في علاقتها بالسلطة ومشاكل المجتمع بصفة عامة. وهكذا، فإن الديموقراطية - وليست الديكتاتورية ابتداءً - "وحش" يمكن له ببساطة أن يجهز على أحلام "طفل" الثورة البريء إذا كان كل العتاد المدّخر لمواجهة الوحش الديموقراطي عبارة عن حزمة من الأحلام الوردية والأمنيات النبيلة ينتظر الناس بركاتها عقب الإطاحة بحكم شمولي من أي قبيل. ولعله من الجدير بنا أن نستدعي ذكرياتنا الأليمة - المتواترة وغير البعيدة - مع وحش الديموقراطية وهو يجهز كل مرّة على أحلامنا ممكّناً لديكتاتورية أشدّ تسلطاً وتمرّساً من سابقتها في الحكم الشمولي.

الشرف على حساب الآخرين

"كلهم يكذبون. يكذب الناس حول كمية المشروبات التي تناولوها في طريق عودتهم إلى المنزل، ويكذبون حول عدد المرات التي يذهبون فيها إلى صالة الألعاب الرياضية، ومقدار تكلفة تلك الأحذية الجديدة، وقراءتهم للكتب، ويعتذرون عن العمل بسبب المرض في حين أنهم ليسوا مرضى، ويقولون إنهم سيتصلون وهم لن يفعلوا ذلك، ويقولون إن الأمر لا يتعلق بك بينما هو يتعلق بك، ويقولون إنهم يحبونك وهم لا يحبونك، ويقولون إنهم سعداء بينما هم يعانون من الاكتئاب... يكذبون على أصدقائهم، ويكذبون على رؤسائهم، ويكذبون على أطفالهم، ويكذبون على الآباء، ويكذبون على الأطباء، ويكذبون على الأزواج، ويكذبون على الزوجات، ويكذبون على أنفسهم!".

كل أنواع الكذب المشار إليها في المقتطف أعلاه معروفة، وإذا كان هناك أمران جديران بالوقوف عندهما فهما: أولاً، معظم الناس وليس قسماً بسيطاً منهم فحسب يجترح نقيصة/رذيلة الكذب، بل إن الكلمة الأولى في المقتطف هي "كلهم" وليست "أغلبهم". ثانياً، يصبح الكذب عادة لدى الناس حتى إنهم يكذبون على أنفسهم. والواقع أن الكذب على النفس ليس نتيجة منطقية لمقدمة الكذب على الناس، وإنما هو على الأرجح إمّا نقطة الانطلاق للكذب على الناس، وإمّا إنه فعلٌ موازٍ أو مستقلٌ يعكس رغبة كلٍّ منّا في أن يرى نفسه على الصورة المثلى التي يرسمها لنفسه ويباركها الناس من حوله.

يواصل سيث ستيفنز - دافيدوتس - SETH STEPHENS DAVIDOWZ في "الكل يكذب"، EVERYBODY LIES، الذي أشرنا إليه

من قبل: "هل سبق لك أن كذبت؟ يعزف أناس كثيرون عن الإخبار بالسلوكيات والأفكار المحرجة في الاستبيانات، لأنهم يريدون الظهور بصورة محترمة على الرغم من سرية معظم الاستبيانات، وهذا ما يسمى بالانحياز للمقبول اجتماعياً. أشارت ورقة بحثية مهمة عام 1950 إلى دليل قوي حول كيفية وقوع استطلاعات الرأي ضحية لهذا النوع من الانحياز، فقد جمع الباحثون بيانات من مصادر رسمية من سكان مدينة دنفر لمعرفة نسبة الذين صوّتوا، وتبرّعوا للجمعيات الخيرية، وحصلوا على بطاقة دخول للمكتبة، ثم قاموا بإجراء مسح على السكان لمعرفة مدى تطابق النسب، وكانت النتائج في ذلك الوقت صادمة! كانت أجوبة السكان في الاستطلاعات مختلفة تماماً عن البيانات التي جمعها الباحثون، وعلى الرغم من أنهم لم يذكروا أسماءهم، إلا أن أعداداً كبيرة بالغت في تقدير تسجيل الناخبين، وسلوكهم في التصويت، والتبرعات الخيرية".

يتساءل سيث: "هل تغير شيء خلال خمسة وستين عاماً؟ في عصر الإنترنت، لم يعد امتلاك بطاقة المكتبة أمراً محرجاً، لكن رغم هذه التغيرات حول الأشياء المحرجة أو المرغوبة، قَويتْ نزعةُ الناس إلى خداع مستطلعي الرأي".

غيرَ بعيد عن السياق أعلاه، كثيراً ما نحب أن يشاركنا غيرُنا أخطاءنا، مواصلةً للعبة خداع الذات التي تقضي على هذا الصعيد بأن الخطأ إذا عمّ صار صواباً أو هان خطرُه على أقل تقدير.

وغيرَ بعيد عن السياق نفسه، نمارس لعبتنا الشهيرة على صعيد التطهّر الديني من خلال العبارة الدارجة "ضعها في رقبة عالِم"، مشيرين إلى وِزر نرتاب في أمره فنبحث عن عالم يجيز لنا ما حاك في النفس ونريد أن يطّلع عليه الناس ممهوراً بفتوى نحمل شهادتها الموثّقة ويحمل العالِمُ أوزارها من الآثام المحتملة.

بعيداً قليلاً، ولكن بما لا يخرج عن السياق، وعلى صعيد التجربة الذاتية البحتة، اصطادني مرة شرطي مرور على منعطف جانبـي مفاجئ فأوقف السيارة وسألني لماذا لا تضع حزام الأمان؟ فاجأته بدوري بالإقرار المباشر

بالخطأ في لهجة لا تحمل أي رجاء على غير ما تعوّد فيما يبدو. حاول الرجل التماس العذر لي فقال: "كنتَ تضعه وخلعتَه ثم نسيت وضعه مرة ثانية؟"، أجبته: "لا"، واصل: "آه، نسيت وضعه إذن وكان في نيتك أن تضعه منذ البداية؟"، أجبته مجدداً: "لا والله، يبدو أن عدم ارتداء الحزام عادة سيئة لديّ". عند هذا الحدّ، لم يجد الشرطي بداً من تحرير مخالفة مرورية لي وقد فعل ما بوسعه لإيجاد مخرج لي أتعهد بعده بعدم تكرار الفعلة.

لم أكن أرغب في تلقّي المخالفة بطبيعة أحال، غير أني حاولت ممارسة أقصى درجات التطهّر وأنا أضمر الرغبة في أن يغفر الشرطي لي خطئي ويتحمّل هو نتيجة عدم تحرير مخالفة لسائق يصرّ على تأكيد تورّطه وهو يرجو أن يفوز بحُسْنَيَيْن: الاعتراف بالذنب، والنجاة من الحساب.

كررتُ الشيء نفسه مع شرطي مرور آخر، كان أكثر صراحة ومواجهة من سابقه، وذلك عندما اضررنا أنا وصديقي لاستدعاء الشرطي لتحرير ورقة تخوّل إصلاح السيارة التي اصطدمت بعمود خشبي بينما كان صديقي يحاول إيجاد مكان شاغر في موقف السيارات المزدحم. ولأن رخصة القيادة الخاصة بصديقي كانت منتهية الصلاحية رأيت أن أحمل أنا عنه المخالفة التي عادة ما تكون مغلظة في حال لم تكن لدى السائق رخصة قيادة أو راح يتبختر في الشارع ليتلف الممتلكات العامة بواحدة منتهية الصلاحية.

جاء الشرطي وسلّم في تهذيب ثم سأل عمّا جرى فانتحيت به جانباً وبادرته: "في الواقع صديقي هو الذي كان يقود السيارة ولكن رخصة قيادته منتهية"، وناولت الشرطيَّ الرخصة، ثم واصلت الحديث: "ولكن أنا سأتحمّل المخالفة نيابة عنه لتلافي العقوبة المغلظة خاصة في ظل ظروف صعبة يمرّ بها ولا تحتمل مزيداً من التعقيد". ذُهل الشرطي من "فاصل الصراحة" هذا فصرخ في وجهي بضيق شديد: "اسمع يا أخي، أنا رجل واجبي تطبيق القانون، كيف تقول لي هذا الكلام. على كل حال لا مشكلة على صاحبك من حيث انتهاء صلاحية الرخصة، فهناك مهلة لمدة شهر يمكنه خلالها تجديد الرخصة، والمهلة لم تنته بعد بحسب التاريخ المكتوب".

ذُهلتُ بدوري من ردة فعل الشرطي رغم أنه لا يفترض أن يكون بها ما يدعو إلى الذهول، وأيقنت بعدها أن عليّ في مثل هذه المواقف الاختيار بين حُسْنَيين: إما أن أكون شهماً وأتغاضى عن الصراحة، وإما أن أكون نزيهاً وأتخلى عن بعض الشهامة مع صديق يحتاجها بشدة. ولكننا نحب أن نجمع كل الحُسْنَيات من الخصال والأفعال، وهذا مستحيل بطبيعة النفس البشرية وطبيعة الحياة نفسها.

السياسة جزء من الحياة، بل هي من أكثر صُعد الحياة سماحاً للتنازلات والأخطاء والنقائص بالدخول من أبوابها. أما الثورة فهي على المدى الطويل ليست سوى لعبة من لعب السياسة حتى إذا اندلعت بطاقةٍ عفوية نبيلة من جماهير ضاقت بها سبل العيش الكريم، فدهاة السياسة من كل جانب لن يتركوا ثورة تمضي في نقاء دون أن يثِبوا عليها فيستغلها كلّ حزب كما تملي أجندتُه السياسية التي لا يبدو للجماهير من صفحاتها سوى ما يحوي النبيل من الدوافع الأخلاقية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية المجردة.

ولأن السياسة جزء من الحياة، فمن حق الساسة أن يخطئوا، ومن حق قادة الحراك الثوري كذلك أن يخطئوا، ومن حقهم أن يكونوا ساسة ابتداءً. ولكن الحق الأصيل للجماهير أن يصارحها من ائتمنته من القادة بالأخطاء حال وقوعهم فيها، والأحرى أن يبادر أولئك القادة إلى أن يقفوا أمام أنفسهم حال اكتشاف تورطهم في معضلة سياسية حلّها أكثر تعقيداً مما بدا لهم حين دفعوا بوعودهم بالجملة إبّان هيجان الحميّة الثورية.

ينخرط الجميع في لعبة الالتفاف على حقائق الواقع المعقد، لكن الأدهى أن يصرّ ساستنا من جميع طوائفهم على أنهم ماضون في إنجاز وعودهم، فلا يقوون على مواجهة أخطائهم ومعضلاتهم الذاتية، وتكتفي كل طائفة بنسبة معضلاتها إلى نظرية مؤامرة، وعندما يعزّ عليها تحديد المتآمرين بدقة تبني الفاعل للمجهول وتلقى بالتبعة على "شمّاعة" الظروف المعقّدة، أو تمضي سادرة في ادّعاء نبلها ومواصلة وعودها وهي تطمع في تحقيق شيء من تلك الوعود بفيض من التنازلات المبرّرة على

طريقة "الشرف على حساب الآخرين"، وذلك كما رأينا في الأمثلة السابقة، ولكن مع مسائل في خطورة كيان وطن ومصير أمّة.

العدوى الثورية

"العدوى النفسية هي أمر روحي ينشأ عن التسليم ببعض الآراء والمعتقدات تسليماً غير إرادي، ومصدرها دائرة اللاشعور، ولذلك لا يؤثر فيها أي دليل أو تأمل، وتشاهد في البشر والحيوانات، ولا سيما عندما يكونون في حالة جماعة، وهي من التأثير بحيث تسيطر على التاريخ. حقاً إن العدوى النفسية هي العنصر الأساسي في انتشار الآراء والمعتقدات، وقد تبلغ بقوتها مبلغاً يجعل الإنسان يضحي بأكثر منافعه الشخصية وضوحاً، يؤيد ذلك أخبار الشهداء، والمنتحرين...إلخ، الذين لم يأتوا بما أتوا به إلا بفعل العدوى النفسية".

نقف مجدداً مع غوستاف لوبون في كتابه "الآراء والمعتقدات"، الصادر في نسخته العربية عن دار "عصير الكتب" من ترجمة عادل زعيتر، وفي المقتطف التالي يشير لوبون مباشرة إلى تأثير العدوى النفسية على الفعل الثوري: "وقد تكون مظاهر الحياة النفسية جميعها سارية، ولكن الانفعالات هي التي تنتشر بالعدوى على الخصوص، وتستطيع الإرادة في الأحوال العادية أن تحدد تأثيرها، غير أن ظهور إحدى العلل - كتحول البيئة أيام الثورة تحولاً عنيفاً، وتحريض الشعب... إلخ - المبطلة لعمل الإرادة تجعل حكم العدوى يجري بسهولة محوِّلاً ذوي الميول السلمية إلى رجال أشداء محاربين، وأبناء الطبقة الوسطى الودعاء إلى أشياع متعصبين، وبتأثير العدوى أيضاً يغيِّر هؤلاء أحزابهم، فيأتون لإخماد الثورة بنشاط كالذي أوقدوا به نيرانها".

الجملة الأخيرة في الفقرة السابقة بالغة الدلالة، وإنْ يكن ما نعنيه في مقامنا هذا هو العدوى المتسببة في سريان الثورة بين الشعوب وليس بين الأفراد والجماعات ضمن الشعب نفسه. وجدير بالانتباه أن فعل العدوى النفسية يبدو واحداً أو على الأقل متشابهاً في الحالين، فعوامل العدوى النفسية المؤثرة في اجتياح حمّى الثورة انتقالاً من فرد إلى فرد تبدو هي ذاتها التي تؤدي إلى سريان الحمى الثورية من شعب إلى شعب، خاصة مع الإقرار بأن التأثير المعني لا يتطلب الاتصال المباشر بين الأفراد، يقول لوبون: "ولا تسري العدوى بتماس الأفراد تماسّاً مباشراً، بل قد تنتشر بالكتب والجرائد والحوادث البرقية، حتى بالشائعات البسيطة. وكلما زادت وسائل النشر والإذاعة تداخلت العزائم وأثّر بعضها في بعض. على هذا الوجه نرتبط كل يوم بمن يحيطون بنا أكثر من ذي قبل، وتكتسب النفسية الفردية شكلاً جامعاً".

هذا، ولم تزد وسائل النشر والإذاعة فحسب بل انفجرت انفجاراً نوعيّاً فولدت وسائل التواصل التي خلطت ما هو اجتماعي بما هو ثقافي وما هو سياسي، فكان الفيسبوك هو بطل الثورات العربية الأخيرة إعداداً وتنفيذاً وإخراجاً على اختلاف مراحل الثورة. ولأنه، كسائر وسائل التواصل "الاجتماعي"، لم يعد وسيلة إعلام رسمية تملكها الدولة قدرَ ما بات في قبضة الشباب من الشعب، فقد شكّلت المهارات الفنيّة في التعامل مع التغطية تحدّياً غير مسبوق أمام الأجهزة الرسمية للدولة لم يتجاوزه سوى تحدّي التعامل مع المحتوى الذي يحرّره الشباب على الهواء متخطياً كل أسوار الرقابة التقليدية لأداة باتت في أيدي الجماهير أكثر مما هي في قبضة الدولة.

بذلك أصبحت سرعة سريان العدوى واحدة، فالملصق الذي ينشره شاب في أحد أطراف الكرة الأرضية يلتقطه جارُه بالمنزل الملاصق وشابٌ آخر على الطرف المقابل من العالم في الوقت نفسه، بحيث لا يتبقى من عوامل إتمام تأثير العدوى سوى ظروف اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية مشابهة تنتظر استثارة من أي قبيل لتدفع الجماهير إلى الانفجار.

ولكن سطوة العدوى الثورية بفعل وسائل التواصل الحديثة تجاوزت العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية المتشابهة إلى حيث بثّت الرعب في الأجهزة الرسمية لتتخذ ما يتجاوز المتوقع من القلاقل في بعض أنحاء العالم إلى الاحتياط من غير المتوقع، فقد ذاع أن الصين حجبت بعض أخبار الثورة المصرية في يناير 2011، وليس من وجه شبه بين المجتمعات العربية والصين سوى ما يمكن أن تضخّمه لذةُ الاستجابة للخضوع لتأثير العدوى الثورية.

وكما تنتقل عدوى الأمراض من جسم ضعيف إلى جسم يفوقه قوة، فإن العدوى الثورية تنتقل من شعب أقل تأثيراً فتصيب شعباً أظهر تأثيراً منه على محيطه الإقليمي. وإنْ كنّا قد قرأنا ذلك من وجهة أخرى في "لا إكراه في الثورة"، فقد نظرنا حينها إلى ثورة مصر بعد تونس ليس على أنها استجابة عدوى من أمة ضعيفة لأمة أقوى قدرَ ما بدا لنا ذلك إفصاحاً عن قدرة عظيمة على الإلهام كامنة في بلد صغير نسبياً في تعداد سكانه كتونس. قبل نحو عشرة سنوات، وتحت عنوان "تونس الملهمة" في كتاب "لا إكراه في الثورة"، قلنا: "وإذ اشتملت الثورة المصرية على ما أكّد خصوصية المصريين، بل وأظهر ملمحاً جديداً من "عبقريّة" مصر، فإن الثورة التونسية أَوْلى بالالتفات إليها كونها أبانت بدورها عبقرية التونسيين الخاصة التي ألهمت كل من ثار بعد ذلك من الشعوب وأوّلُها الشعب المصري. غير أن ذاكرة العالم كثيراً ما يعتريها العطب فتترنح في لحظات النشوة بحدث جديد يستبد بها فينسيها ما جلّ من الأحداث المماثلة في الأمس قريبه وبعيده".

قلنا حينها أيضاً في الموضع ذاته: "إن سودانياً مهما بلغ من السكون الثوري لا يمكنه أن يتجاوز أكتوبر وأبريل - مهما اكتنف التجربة التي تلت الثورتين لاحقاً من قصور - في معرض الفخار بالسبق السوداني الذي هو حالة نادرة على المستوى الإقليمي بكل مقياس. ولكن المسألة مع ثورتَيْ أكتوبر وأبريل السودانيتين تتعدّى ذاكرة التاريخ المترنحة بنشوة نصر ماثل أو قريب على حساب آخر بعيد، المسألة مع كل إنجاز سوداني تتعدّى الذاكرة

الضعيفة للتاريخ - أو المنحازة إلى قوة ساحرة كمصر - إلى التقليل من أهمية الإنجاز أو على الأقل قدرته على الإلهام والاحتذاء حتى عندما يكون ساخناً وطازجاً، وذلك مأزقنا الذي نتحمّل وزره قبل أن تكون مشكلة الآخرين - على المحيط العربـي خصوصاً - التي نسارع إلى معالجتها بعتاب وضيق خجولين لا يسمنان ولا يغنيان من تغاضٍ واستخفاف".

ولكن مع ديسمبر 2018 تبيّن أن السودان قادر على الإلهام وليس على الإبداع الثوري الأصيل فحسب كما كان الحال مع ثورتيه الرائدتين عربياً في أكتوبر 1964 وأبريل 1985. ولعل فضل تكنولوجيا الفضائيات ووسائل التواصل لا يجب أن يُجحد على هذا الصعيد. يبدو أن العالم العربـي أصبح بالفعل قرية لا يستنكف الناس على أطرافها المتقاربة أن يأخذ بعضهم عن بعض، إذ يصعب تجاوز فكرة انتقال الحمّى الثورية من الخرطوم إلى بغداد وبيروت. وإذا كان في تفاصيل الحراك الثوري في العاصمتين العربيتين العريقتين الكثير من الخصوصية، فإن أكثر من وجه شبه لحراك الخرطوم الثوري لا يمكن إخطاؤه في بيروت وبغداد. والثابت على كل حال أن عدوى الحمّى تتحقق بتوالي الانتقال في أعقاب الاتصال ولو في عالم افتراضي، وذلك بصرف البصر عمّا تحدثه الحمّى من التأثير في الجسد وردات الفعل لكل جسد بحسب طبيعة أجسامه المضادة.

الإبداع والاتّباع في الثورة

"المصريون تلقفوا الثورة من جارتهم - غير اللصيقة - تونس ابتداءً بطريقة الإشعال (حرفياً كما في سيرة البوعزيزي) ومروراً بطرق المقاومة والإصرار عليها وانتهاءً بنجاح الثورة في الإطاحة بالنظام وبكثير من التداعيات التي تلت ذلك سياسياً واجتماعياً، غير أن المصريين في الوقت ذاته أبانوا كيف أن التقليد إذا كان قدريّاً في بعض الأحيان فإن أمّةً جُبلت على الإبداع لن يعوزها أن تفجِّره في تفاصيل الفكرة والعمل المقلّدَين عنواناً، وهكذا تجلّت نكهة الثورة المصرية الخاصة في الإصرار على سلميّة الثورة رغم المحرضات والمراوغات التي ظل يبتدعها النظام حتى الرمق الأخير بدافع "حلاوة الروح" استفزازاً للناس علّها تطيش فتعين على التماس العذر للبطش بها، والإصرار على سلميّة الثورة له مفعول ساحر في تأجيج تعاطف العالم تلقفه آخرون كما سنرى. إلى ذلك برع المصريون في ابتداع الشعارات واللافتات و"الحركات" المبتكرة التي بلغت ذروتها باتخاذ الفكاهة مادةً جديدة تتخلل مناهج الثورات للمرة الأولى... ربما."

ذلك مقتطف من "قراءة في إبداعات الشعوب على خلفية ثوراتها" ضمن كتاب "لا إكراه في الثورة"، والمقتطف يشير إلى النموذج المصري مثالاً في غضون الثورات العربية قبل نحو عشرة سنوات، وقد شملت تلك القراءة النماذج الثورية التونسية والليبية واليمنية والسورية إضافة إلى بضعة تساؤلات حول نموذج سوداني افتراضي، فـ "الربيع العربـي" حينها كان قد شمل بلفحاته خمس دول عربية فقط. وبعد عشرة سنوات تقريباً، تباينت خلالها الأحوال في دول "الربيع العربـي" الخمس، انضمت أربع دول أخرى فركبت قطار الثورة.

انفجر السودانيون فأصبحت ثورتهم واقعاً شديد الخصوصية وليست نموذجاً افتراضياً نقرؤه في ظلال ثورتين سابقتين من تاريخه الحديث وخمس ثورات معاصرة على محيطه العربـي الداني. واشتدّت القبضة الحديدية على الجزائريين فبلغت سيول غضبهم الزبى ولم يعد بالإمكان السيطرة عليها بنفس وجوه النظام القديم وأركانه. وضاق العراقيون ذرعاً بديموقراطية حديثة ضربت في الفساد وسوء الإدارة أرقاماً قياسية من حيث السرعة والعمق. أما اللبنانيون فقد أبانوا بثورتهم الجريئة أن أرسخ ديموقراطية في التاريخ العربـي الحديث ربما تكون قد أساءت إلى الفكرة الديموقراطية عربياً أكثر مما أحسنت إليها، فالديموقراطية اللبنانية لم تقض على الطائفية وإنما تأسست على محاصصاتها، والأدهى أنها لم تبتر الفساد أو تقيّده وإنما سمحت للمتنفّذين بأن يطلقوا أيديهم وأرجلهم في مستنقعاته.

عشرة سنوات منذ "الربيع العربـي" كانت كفيلة بأن تجعل الفعل الثوري العربـي، ممثلاً في النماذج السودانية والجزائرية والعراقية واللبنانية، أكثر أصالة. وربما كان غريباً أن ننكر التقليد على الفعل الثوري، فالغاية في مقام التطلّع إلى الحرية هي التمرّد على الطغيان حتى إذا تم بفعل استلهام أو تقليد مباشر لنماذج قريبة أو بعيدة. وبرغم أن قراءة إبداع الثورات المتجاورة تبدو ترفاً من قبيل ما، فإن نماذج التحرّر الأصيلة تبدو بدورها هي الأصلح للبقاء، فالثورة فعل شديد التعقيد والقسوة يستمد زاده باستمرار من خصوصيات انطلاقته، حتى إذا كانت دوافع الثورة متشابهة أو واحدة ممثلة في سطوة الظلم واستشراء الفساد.

ولكن الثورات يلهم بعضها بعضاً، فلا مجال للتقليد الحرفي الساذج مع فعل في جدية واحتدام ثورة مشتعلة، وإذا عمد الثوّار في بلد إلى اقتفاء خطى نظرائهم في بلد مجاور فذلك على سبيل الاستنجاد بوصفات خلاص عاجلة ومجرّبة. ويبقى مهمّاً الانتباه إلى أن الأنظمة التي تتم الثورة عليها هي كذلك شريك (مضاد) في اللعبة الثورية، بحيث لا يُكتب النجاح أو الفشل

ُ

لثورة على قدر أصالتها فحسب وإنما لتداخل عوامل كثيرة أهمُّها حظّ شريكها المضاد (النظام) من الدهاء وأصالة أساليب مقاومة الثورة.

ومثلما أن لها دوراً عظيماً في تحقيق النجاح في الحياة، فإن المرونة تبدو عاملاً حاسماً (وأرجو أن تجوز مفارقة التعبير جمعاً بين المرونة والحسم) في نجاح الثورة والثورة المضادة على السواء. فالثوار ينجحون بتجنّب المساومة على المبادئ التي قامت عليها ومن أجلها الثورة، ويعبرون بثورتهم إلى مرافئ الأمان على المدى الأبعد والأعمق على قدر ما يتحلّون به من المرونة في مواجهة من يجلسون على الطرف المقابل في طاولات المفاوضات على كل صعيد. وبالمثل فإن الثورة المضادة التي لا مناص من أن يشنّها النظام القائم والمستفيدون من وجوده يلزمها من المرونة ما يكفي لمواجهة نجاح الثورة في إحراج النظام وحشره في الأركان الضيقة إقليمياً وعالمياً.

ولكن المرونة وحدها لا تكفي بطبيعة الحال، سواءٌ في الوصول بالثورة إلى مبتغاها أو تمكين النظام القائم والمفاوضين في ظلاله من البقاء في السلطة، فالمهارة هي الصفة التي ترجّح كفة الطرف المنتصر، والمهارة ليست سوى إجادة اللعب تنقّلاً بين أدوات القوة ومكائد/مكايدات المرونة على قدر ما تُوجب العوامل المتداخلة تحكّماً في مَجْرَيات الثورة داخلياً وخارجياً على كل محيط قريب وبعيد.

يتفاجأ الثوّار والسلطة على السواء بنتائج الثورة على المدى القريب، فلا ثورة مضمونة النتائج - ابتداءً - ربحاً أو خسارة لأيٍّ من الطرفين. ونتيجة الثورة على المدى القريب، بإقصاء النظام أو بنجاحه في الاستمرار في الحكم أو حتى بصيغة توافقية ثالثة، أشبه بنتيجة مباراة في بطولة رياضية، فالمباريات القادمة (حتى إذا بدت المنافسة محصورة بين فريقين فحسب) هي التي تحدّد الطرف المنتصر. غير أن بطولة إرساء الحكم الرشيد في الوطن ليست لعام واحد وإنما لسنوات بل لعقود طويلة، والثورة مهما تبدُ ضخمة فإنها ليست سوى ضربة البداية في المباراة الأولى من بطولة تصحيح مسار الوطن، وهي بطولة كما أسلفنا طويلة يتعثر فيها كل فريق

على الطريق الشائك، ولا تنتهي بدحر المجرمين والخونة وإنما بإعادة صياغة وطن لا يقصي أحداً ولا يميّز بين أبنائه في الحقوق والواجبات.

لأن غاية الثورة الأبعد بذلك العمق، من الخير لكل أمة أن تبدع العناوين العريضة لثورتها وتفاصيلها بحسب خصوصية الطغيان والفساد اللذين أشعلاها، ولأن الإبداع المطلق مستحيل فلا بأس بأن تنقل ثورة عن ثورة ملمحاً أو بضعة ملامح، غير أن إبداع وطن أصيل يتطلب أن تكون ثورته أصيلة، والأصالة تعرف ابتداءً كيف تنشغل بالشؤون العظيمة وتترفّع عن سفاسف الأمور.

الأخوّة الثورية

في ويكيبيديا العربية: "إرنستو "تشي" جيفارا... المعروف باسم تشي جيفارا (Che Guevara)... (بالإسبانية: Ernesto 'Che' Ernestico Guevara de la Serna)... ثوري كوبـي ماركسي أرجنتيني المولد، وهو طبيب وكاتب وزعيم حرب عصابات وقائد عسكري ورجل دولة عالمي وشخصية رئيسة في الثورة الكوبية. أصبحت صورته المنمقة منذ وفاته رمزاً في كل مكان وشارة عالمية ضمن الثقافة الشعبية. سافر جيفارا عندما كان طالباً في كلية الطب بجامعة بوينس آيرس، التي تخرج منها عام 1953، إلى جميع أنحاء أمريكا اللاتينية مع صديقه ألبيرتو غرانادو على متن دراجة نارية وهو في السنة الأخيرة من الكلية، وكوّنت تلك الرحلة شخصيته وإحساسه بوحدة أمريكا الجنوبية وبالظلم الكبير الواقع من الإمبرياليين على المزارع اللاتيني البسيط، وتغير داخلياً بعد مشاهدة الفقر المتوطن هناك. أدت تجاربه وملاحظاته خلال هذه الرحلة إلى استنتاج بأن التفاوتات الاقتصادية متأصلة بالمنطقة... رأى جيفارا أن العلاج الوحيد هو الثورة العالمية".

تواصل ويكيبيديا عن البطل الثوري الأسطوري: "بينما كان جيفارا يعيش في مدينة مكسيكو التقى هناك براؤول كاسترو المنفي مع أصدقائه الذين كانوا يجهزون للثورة وينتظرون خروج فيدل كاسترو من سجنه في كوبا. ما إن خرج هذا الأخير من سجنه حتى قرر جيفارا الانضمام للثورة الكوبية. رأى فيدل كاسترو أنهم في أمس الحاجة إليه كطبيب، وانضم لهم في حركة 26 يوليو... سرعان ما برز غيفارا بين المسلحين وتمت ترقيته إلى الرجل الثاني في القيادة حيث لعب دوراً محورياً في نجاح الحملة على مدار عامين من الحرب المسلحة التي أطاحت بنظام باتيستا. في أعقاب

الثورة الكوبية قام غيفارا بأداء عدد من الأدوار الرئيسية للحكومة الجديدة، وشمل هذا إعادة النظر في الطعون وفرق الإعدام على المدانين بجرائم الحرب خلال المحاكم الثورية، وأسس قوانين الإصلاح الزراعي عندما كان وزيراً للصناعة وعمل أيضاً كرئيس ومدير للبنك الوطني ورئيساً تنفيذياً للقوات المسلحة الكوبية، كما جاب العالم كدبلوماسي باسم الاشتراكية الكوبية".

جيفارا واحد من أشهر رموز الشخصيات الثورية، ولدى كثيرين هو أشهر تلك الشخصيات على الإطلاق، وفي ويكيبيديا التي نقتطف عنها في هذا السياق أكثر من إشارة إلى تأثير جيفارا الأسطوري هذا: "لا تزال شخصية جيفارا التاريخية ملهمة ومحترمة، مستقطبة للمخيلة الجماعية في هذا الخصوص والعديد من السير الذاتية والمذكرات والمقالات والأفلام الوثائقية والأغاني والأفلام، بل وضمنته مجلة التايم من بين المائة شخص الأكثر تأثيراً في القرن العشرين، في حين أن صورته المأخوذة من طرف ألبرتو كوردا والمسماة غيريليرو هيروويكو (أصل الاسم بالإسبانية ويعني باللغة العربية بطل حرب العصابات)... قد اعتبرت الصورة الأكثر شهرة في العالم".

الإحساس بالأخوّة الثورية ينشأ عن مشاركة ظروف قاسية من القهر بين شعوب لا يجمع بينها عرق أو دين أو لغة بالضرورة، وهكذا فإن لفحات المشاركة الثورية لدى جيفارا الأرجنتيني لا تقتصر على كوبا في أمريكا الجنوبية بصورة أساسية وغواتيمالا في أمريكا الوسطى فحسب وإنما تطال الكنغو كينشاسا في وسط إفريقيا كذلك، والأهم أن إلهام جيفارا قد مسّ معظم الأرواح الثورية في العالم الذي لم يكن الثائر الأرجنتيني الشهير فيما بدا من سيرته ليتردد في المشاركة في أية ثورة على أي من أطرافه.

مقابل شي جيفارا، لا يبدو معمّر القذافي حالة ملهمة بالدرجة أو الكيفية ذاتها، لكن روح الزعيم الليبـي السابق كانت أيضاً تشتعل بالثورة إلى حد التماس الأخوّة الثورية لدى الجيش الجمهوري الإيرلندي، فضلاً عن الثوّار المجاورين على اختلاف عقائدهم الثورية.

وإذا كانت الأخوّة الثورية تنهض أساساً على مشاركة الإحساس بفداحة القهر السياسي والاضطهاد الاجتماعي والقسوة الاقتصادية، فإن الثوّار لا يستطيعون في الغالب المحافظة على تلك المشاعر النبيلة عقب الإمساك بزمام الحكم، فالروح الثورية المتأججة تعرف لغة البندقية على ما يبدو أكثر مما تفهم أية لغة أخرى تنهض على أساس عقلاني أو سلمي. فجيفارا نفسه غدا مرهوباً، بعد أن بات متنفّذاً في الدوائر السياسية والعسكرية الكوبية، لوحشيّته إزاء كل ما يراه هو وأنصاره عملاً ضد مبادئ الثورة التي أصبحت سلطاناً شديد البطش. ومثل جيفارا، في شدة البطش على الأقل، كان القذافي بُعيد الاستيلاء على السلطة والبقاء على سدّتها لأكثر من أربعين عاماً. ذلك على سبيل المثال، أمّا التقصّي الدقيق فسيعجزنا لا محالة عن الحصر في مقام كهذا، فالقادة الثوريون اللذين يحافظون على سطوتهم الباطشة بعد الاستيلاء على السلطة الرسمية في الدولة (من طراز شي جيفارا وفيدل كاسترو ومعمر القذافي، على اختلاف طبائعهم وخلفياتهم الثقافية) هم القاعدة التي يصبح الاستثناء معها تحدّياً يتطلّب مجهوداً مضنياً في البحث لإثباته قبل الإقرار بالفشل على الأرجح.

مقابل ذلك الطراز الثوري العنيف تقف بشموخ أمثلة أخرى على الاستبسال ضد الظلم بروح ثورية أيضاً ولكن دون أن تكون متعطّشة للإسراف في القتل. ولن يكون مثالنا المختار هنا هو الـ "ماهاتما" غاندي مع إنه مثال مستحق ولكن على نسق يكاد يكون طوباوياً من الروح السلمية التي يعجز الناس بصفة عامة عن الارتقاء إلى مثلها.

نيلسون مانديلا هو مثالنا المختار مقابل ثورية جيفارا الجامحة، ومانديلا بدا لي محظوظاً بدرجة كبيرة منذ بواكير اطّلاعي على سيرته الذاتية التي نُشرت للمرة الأولى قبل ربع قرن، والتي يقرّ فيها مانديلا نفسه في تواضع وثقة فريدين بذلك الحظ الذي خوّله من بين زملائه ليكون رمزاً للثورة ضد العنصرية في بلاده وهو لا يزال في السجن فيحلّق اسمه في الآفاق وتملأ الملصقات التي تحمل صورته شوارع العواصم العالمية.

لم يكن الحظ بمثابة ضربة البداية فحسب في رحلة القائد الإفريقي الأسطوري، وإنما تخلل سيرته ومسيرته مراراً لكنه لا ريب لم يكن وحده كفيلاً بصنع تلك الأسطورة، فالذكاء الفريد ضروري في الحالات المشابهة لنيلسون مانديلاً، وهي حالات فريدة بدورها. سِجِلّ الأوسمة والجوائز الخاص بالرجل حافل بشكل استثنائي، وهو يعكس حظ نادر لرجل احتفى به القاصي والداني من كل جنس ولون في العقائد والأفكار والأعراق.

آمن مانديلا كذلك بالعقيدة الثورية وما تمليه من واجبات الأخوّة والتضحية، وسيرته الذاتية تبيّن ذلك على الصعيدين الإقليمي والعالمي على السواء، لكنه ظلّ من الفطنة بحيث ابتعد عن التورّط في العنف سوى بما تقتضيه الضرورة الثورية ضد عدوّه المباشر ممثلاً في سياسة الفصل العنصري ومن يقف وراءها، وهو حدّ من الفطنة جنّبه وصمة التخاذل عن دعم قد يحتاجه إخوة ثوّار على الجوار، وبلّغه آفاقاً مدهشة من النبل الثوري العظيم.

الأخوّة الثورية واجبة لا محالة، لكنها تحتاج إلى مثل حظ مانديلا وفطنته كي يخرج صاحبُها من المعمعات الثورية طاهرَ الذيل، فالوفاء المطلق لمقتضياتها يجرّ على مَن يتحلّى به قدراً عظيماً من المهالك وإشانة السمعة، بالحق وبالباطل.

الثورة والواقع

في كتاب "الصفحة البيضاء: الإنكار الحديث للطبيعة البشرية" The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature لستيفن بنكر، الترجمة العربية لمحمد الجورا عن دار الفرقد عام 2018، وتحت عنوان "الخوف من عدم إمكانية الكمال" يرِد ما يلي: "في ذكريات وردزورث نجد الخوف الثاني وقد رفعته نفس فطرية. ففكرة أن الطبيعة البشرية بإمكانها أن تولد ثانية قد أبهجت الشاعر الرومانسي، وإمكانية أن نمتطي إلى الأبد عيوبنا القاتلة وخطايانا تحبطه. ونجد رد الفعل ذاته لدى المفكرين السياسيين الرومانسيين، لأن طبيعة بشرية لا تتغير تلغي - كما يبدو - كل أمل في الإصلاح. فلماذا نسعى إلى جعل العالم مكاناً أفضل إذا كان الناس متعفنين حتى اللب، وسوف تشوهه بغض النظر عما تفعله؟ ليس من قبيل المصادفة أن تلهم كتابات روسو الحركة الرومانسية في الأدب، والثورة الفرنسية في التاريخ. كما شهدت ستينيات القرن العشرين إعادة صعود لنزعة رومانسية وسياسات راديكالية في مركبة واحدة يجرها جوادان سوياً. لقد أوضح الفيلسوف جون باسمور أن حنيناً إلى عالم أفضل من خلال طبيعة بشرية أحسن هو دافع متكرر في الفكر الغربـي، وهذا ما يختصره د. هـ. لورانس بإيجاز (كمال الإنسان! آه أيتها السماء، يا له من موضوع كئيب). يأخذ الخوف من طبيعة بشرية شريرة أبدية شكلين. أحدهما خوف عملي: الإصلاح الاجتماعي هو تبديد للوقت، لأن الطبيعة البشرية غير قابلة للتغيير. والثاني: هو اهتمام أعمق ينبع من الاعتقاد الرومانسي بأن كل ما هو طبيعي هو خير".

تلك مقدمة لكلام مستفيض في كتاب ستيفن بنكر عن الخوف من عدم الكمال في الحياة، وبالتركيز الحادّ على جزء مشتعل من الحياة تبدو

وعود القادة الثوريين للجماهير بجنّة على الأرض عقب الإطاحة بالنظام الذي ثاروا ضدّه كما لو كانت ردّة فعل متعجّلة نتيجة الخوف من الاتهام بعدم كمال الثورة.

علاج الخوف من اتهام الثورة بعدم الكمال يكمن في تجنّب ادّعاء كمالها ابتداءً، وهو حلّ كما يبدو بسيط لكنه معقّد في الوقت نفسه، فالجماهير الثائرة لا ترضى بأقل من تلك المثالية بطبيعة الاندفاع الثوري الذي لا يتردّد أمام تضحيات في مقام الشهادة. القادة الثوريون يدركون ذلك جيداً، ولذلك أيضاً هم مجبرون وليسوا مخيّرين إزاء وعود الوطن الذي سينقلب إلى جنّة بعد أن يُرمى بالنظام الحاكم في مكان (متّسخ؟) من ذاكرة التاريخ.

وعندما يحاول قادة الثورة أن يتذاكَوا على الثوّار بمحاولة تمرير خطاب واقعي لهم، فإن ردّة فعل الجماهير الثورية تكون حادة بما يكفي لترويع قادتهم وإجبارهم على سحب تلك الواقعية من خطابهم على الفور والعودة إلى التحليق في سماوات من المثالية تكافئ مثالية التضحية بالنفس التي لا يتردد الثوار بشأنها على مدار الثورة تطلّعاً إلى جنة على الأرض لا يمكنهم المساومة حولها.

تبدو الثورية إذن كما لو كانت مناقضة للواقعية، والحق أنها بدون ذلك الجموح في التطلّعات ما كانت لتحقّق ما يشبه المعجزات متمثلة في الإطاحة بأنظمة بالغة الرسوخ وسطوتها تلوح في كل مرة كأنها منقطعة النظير بحيث يبدو إقصاؤها في حكم المستحيل الذي لا سبيل إلى مجابهته سوى بجنون ثوري منقطع النظير بدوره.

هكذا، لن يجد القادة الثوريون مفرّاً من الاستسلام إلى سهولة الوعود الثورية الحالمة لضمان استمرار اشتعال الحماسة في نفوس الجماهير، مرجئين مواجهة الحقيقة القاسية إلى حين اقتلاع النظام المغضوب عليه والاصطدام الحادّ إثرَ السقوط المدوّي من سماوات الطهر الثوري إلى أرض الوطن خالياً من نظام مستبدّ ظلّ لأمد طويل مغرياً بإلقاء كل تبعات الفشل عليه.

لا تنتظر الثورة بديلاً جاهزاً للنظام، وإذا كان مهندسو الثورات يخططون لها مسبقاً بإحكام شديد في الداخل والخارج، فإن الثورة في كل الأحوال لا ينجح نشوبُها إلا إذا صادفت انفعالاً جماهيرياً طاغياً، وهي لا تستأذن أحداً في الاستمرار بعد أن تنفجر. وفي "لا إكراه في الثورة" قلنا: "الثورة لغوياً وعملياً من الهياج، والهياج مبجّل حين يستهدف نظاماً متسلِّطاً على رقاب العباد، وهو فوضى حين لا يعرف ماذا يصنع عقب الإطاحة بالنظام. والثوّار شرفاء حين يخلصون النيّة في الإطاحة بالنظام المستبد طلباً للحرية لا غير، وحين تسطو على ثورتهم بضع حركات انتهازية ومجموعة من "الفلول" فإن ذلك لا يقدح في فعل الثورة ولا في شرف الثوّار إلا بقدر ترنُّحهم في التعامل مع الوضع الجديد الذي لم يعد حقاً يبلج في مواجهة باطل يتلجلج كما كان في الأمسيات التي سبقت فجر الثورة".

الثورة في مواجهة نفسها بمثابة الجهاد الأكبر، قياساً إلى الثورة في مواجهة النظام الذي كان. والجهاد الأكبر هذا لا مفر منه في حال انتصار الثورة في الإطاحة بالنظام الذي ستكون "فلوله" بعدها لا محالة في حالة استنفار شرس لوضع العراقيل وحياكة المؤامرات على طريق النظام الجديد. والامتحان الأقسى مع الجهاد الأكبر هذا لن يكون في التعامل مع نظرية المؤامرة ولا في التصدي للمؤامرة الحقيقية وإنما في مواجهة الوعود الثورية بالجنّة الموعودة في الوطن بُعيد سقوط النظام المستبد.

لا تُكلَّف ثورةٌ إلا وُسعها، فحتى بديل النظام لا يُتوقّع أن يكون جاهزاً على طريقة لاعب احتياط ينزل إلى الملعب ويواصل المباراة بديلاً عن زميل ناله الإعياء فاضطر المدرب إلى إخراجه. فالنظام الذي تأتي به الثورة لينزل إلى ميادين العمل السياسي مع فجر الانتصار في الإطاحة بالحكم السابق ويقلب نتائج المباريات كلها لصالح الوطن هو نظام أسطوري لا وجود له، ولا ذنب لقادة العمل الثوري على هذا الصعيد سوى إصرارهم على ترويج تلك الأسطورة على أنها حقيقة قريبة طيلة الحشد الثوري. ولأن تسكين الجماهير بوعود "منطقية" خلال الثورة مهمة شبه مستحيلة، فإنه لا مناص للقادة الثوريين من تحمّل تبعات ممارسة امتطاء الوسيلة الماكرة بعد أن

بلغوا الغاية بإطاحة النظام، ولكن الأدهى أن يكون قادة الثورة أنفسهم مؤمنين بأسطورة استمرار بركات الطهارة الثورية لما بعد سقوط النظام، وألاّ يكونوا تبعاً لذلك مستعدين لمهارة العمل الجاد في مستنقعات السياسة غير النظيفة من مواقع الحكم بعد أن تمرّسوا في التنظير والتدبير من مقاعد المتفرجين.

متى تنتهي الثورة؟

"هناك آلاف الأعوام تفصل بين الشرق والغرب على صعيد نشوء المدينة، والحضارة المدنية التي تحتل مكانة هامة في التطور الإنساني، والإصلاح الزراعي. يحكى عن ممارسة الزراعة في وادي الرافدين وإيران قبل الميلاد بخمسة آلاف عام. وهذا الأمر يمكن مناقشة وجوده في أوروبا قرب فترة الميلاد. ولكن الثورة الصناعية حدثت في أوروبا قبلنا بكثير. توسعت المدن فجأة، وازدادت رفاهية الشعوب اقتصادياً، وتطوّر التنظيم في كل مجالات الحياة في الثورة الصناعية، ولم نتمكن من اللحاق بالغرب إلا بعد قرن ونصف تقريباً. كانت روسيا على رأس الذين بدؤوا بهذا اللحاق ثم تبعتها تركيا وإيران. بعد ذلك تنضم إلى هذا الركب شعوب الشرق الأوسط الأخرى. هذه المرحلة من أكثر صفحات التاريخ البشري إيلاماً. ما زالت هذه الصفحة المؤلمة مستمرة بكل شدتها اليوم، أي أننا لا نمرّ بصفحة السعادة والتقدم كما تذكر بعض الدعايات، بل نمرّ بصفحة نضال جرحها أعمق ومصاعبها أكثر، وسؤال: "كيف سنتجاوزها؟" هو من أهم قضايا التاريخ البشري. مشاكلنا الأخلاقية وتحليلاتنا الاجتماعية كلها تدور حول هذا المحور".

هكذا تحدث إلبر أورتايلي المؤرخ التركي في كتابه "نحن وتاريخنا"، النسخة العربية صادرة عام 2015 عن الدار العربية للعلوم من ترجمة عبد القادر عبد اللي. يواصل أورتايلي/أورطايلي في الموضع ذاته: "ثمة خصوصية أخرى في هذا الإطار، وهذه أهم بكثير. أمامنا قارة أوروبية منظمة. ما تاريخ هذا التنظيم، ومتى بدأ؟ يجب التوقف عند هذا الأمر أساساً. ما أوروبا؟ هذه ليست فكرة اتحاد قديم جداً. هناك محاولات وحدوية أقدم منها في العالم.

ولكن أوروبا سارت بهذا الأمر بالشكل الأقوى والأكثر صخباً. لا تعتقدوا بأن فكرة الاتحاد الأوروبـي والجهود من أجلها ظهرت أثناء الحرب العالمية الثانية أو بعدها. يعود جذر هذه الفكرة إلى وقت أقدم بكثير. هناك تنظيمات في هذا المجال منذ عصر النهضة".

أورتايلي مؤرخ مهتم أساساً بالتاريخ العثماني، إضافة إلى كتاباته عن التاريخ الروسي والتاريخ الثقافي والفكري بصفة عامة، وعن التاريخ الحضري/تاريخ المدن بصفة خاصة مما يعنينا في هذا المقام. ولكن ما علاقة تاريخ المدن بنهاية الثورة؟، يمكن أن نتلمّس الإجابة في ضوء التعليق التالي لما يتبع مزيداً من الاقتطاف عن المؤرخ التركي من كتابه "نحن وتاريخنا".

يتابع إلبر أورتايلي: "الوحدة الأوروبية طموح نابليون، والغريب أنه حتى طموح هتلر أيضاً، وقد خطيت خطوات على هذا الطريق مع فرنسا ولكنها مختلفة ومهمة جداً. بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت هذه الوحدة طموح المحافظين الديموقراطيين وأمثال الجنرال ديغول وكونراد أديناور. تم التفكير بوحدة اقتصادية بداية، ثم تحولت تدريجياً إلى وحدة ثقافية. وهذا هو الصواب. لأن أوروبا تشكلت على دين وطراز حياة معينة. هناك تأثير القصرين الإسباني والفرنسي والبرلمانيين البريطانيين على هذا الاتحاد وطابعهم. الأدب والفلسفة الفرنسية والألمانية وأمها عصر النهضة الإيطالي أخرجت هذا الاتحاد والحضارة إلى الواقع".

أورتايلي لا يعرض لتاريخ تشكّل أوروبا بتفصيل في كتابه هذا إلا بما هو في سياق التاريخ العثماني وبما يفيد دراسة بدايات تشكّل تركيا الحديثة وراهنها في الغالب، لكنّ لمْحَتَه الأخيرة مكثفةَ الدلالة تغري بالتقاطها للإجابة على السؤال: متى تنتهي الثورة؟، وذلك بتذكّر أن مخاض القارة العجوز قبل ولادة اتحادها كان طويلاً وعسيراً بما يمتدّ إلى عقود طويلة بل إلى مئات السنين، وهو ما يشير إليه المؤرخ التركي على كل حال.

ربما الأجدر قبل الحديث عن نهاية أية ثورة أن نتساءل عن بداياتها، فالثورة ليست كائناً ينشأ من العدم، ولا أومئ بذلك إلى الاضطهاد الذي يفجّرها مباشرة وإنما أعني أمّهاتها من الثورات السابقات. فلا ثورة منبتّة

الصلة بتاريخ قريب وبعيد على السواء. التاريخ البعيد يتيح استلهاماً تثور الشخصية الوطنية على خلفيته الاجتماعية، والتاريخ القريب يمثّل الحافز المباشر و"الكتالوج" الذي تهتدي به الثورة. ولا ثورة مبتورة النسب من ثورة قريبة هي أمّها التي عهدت إليها ليس وضعَ خاتمة سعيدة للرسالة الثورية وإنما إكمال ما انقطع منها.

الرسالة الثورية لا تنتهي بثورة إذا كانت غاية تلك الرسالة هي القضاء على الاستبداد واجتثاث الفساد. والغاية الأعمق تكمن في استقرار مؤسسات الدولة وعملها البنّاء بما يمنح كل الأفراد الحقوق ويطالبهم بالواجبات تكافؤاً، وتلك هي الصورة الوحيدة الضامنة للقضاء على الاستبداد واجتثاث الفساد، وهي كما هو واضح صورة من التعقيد بحيث لا يملك فنّانو الثورة الفراغ من تفاصيلها في حمّوة المعركة الثورية، وإنما هي مما يتطلّب أجيالاً من أبناء الوطن يعملون بروح جندي وإحساس فنّان لبناء بلادهم والمحافظة على كيانها والارتقاء بأدائها بعيداً عن النزعات الثأرية والمشاعر الانتقامية حتى إذا كانت مستحقة، فالثأر والانتقام عابران، ومحاسبة المستبدين والمفسدين ليست غاية الثورة بل عملية مستمرة تضمنها الدولة المستقرة المزدهرة التي تكون هي ثمرة الثورة.

وللدقة، فإن الدولة المستقرة المزدهرة هي خلاصة فيض من الثورات ومخاض طويل وعسير حتى في أوقات الهدنات الثورية التي تنطوي على فترات استقرار هشة هي في الواقع حالات سكون لا تعدم التأرجح بين نجاحات عابرة واخفاقات عميقة ومتفاقمة.

شرارة الثورة تشتعل في لحظات، لكن الثورة ذاتها كما ظللنا نشير مخاض طويل وعسير يلفّه الصبر على الظلم والفوضى، وبالمثل فإن مخاضاً طويلاً وعسيراً لا بد من أن ينقضي - على نحو ما أسهبنا فيما مضى - قبل أن تحقق الثورة أهدافها كاملة عبر الأجيال. أمّا أن تنتهي الثورة عقب الإطاحة بنظام وتكليف أو انتخاب نظام آخر فلا تعني النهاية هنا سوى الفشل، أو الاستسلام بتعبير أخفّ حدّة.

كم ثورة تاقت إلى إنجاز سريع وحاسم بانقلاب الدولة إلى مدينة فاضلة عقب انقشاع النظام الذي ثارت عليه؟ الإجابة: كلّ ثورة. وكم ثورة أفلحت في تحقيق ذلك؟ الإجابة: ولا ثورة.

"تنجح الثورة" إذن تعبيرٌ أعمق من "تنتهي الثورة"، فالنهاية كما رأينا قد تعني الفشل. وبعيداً عن الخلاف حول الألفاظ والتعابير، فإن نجاح الثورة (بمعنى النهاية السعيدة) لا يُكتب عند سقوط طاغية أو اقتلاع نظام فاسد وإنما عند اجتثاث الطغيان والفساد من المجتمع. ولأن المجتمع كله شريك في مسؤولية استشراء الفساد والطغيان ابتداءً بالسكوت عنهما في أخفّ حالات التورّط في دعم الباطل، فإن عملية اقتلاع الطغيان والفساد تمهيداً لبناء مؤسسات الدولة العميقة والمطمئنة هي مسؤولية المجتمع بأسره باعتباره الجهة الوحيدة المخوّلة عبر النضال الطويل والعمل الشاق من أجل كتابة النهاية السعيدة للتاريخ الثوري المجيد.